وزارة الثقافة

ساعات في الجحيم

تأليف: يوسف عيسى البندك

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

ساعاتٌ فِي الجَحِيم

تأليف: يوسف عيسى البندك

صدرت الطَّبعة الأولى منه عام ١٩٣٩
عن مطبعة صوت الشَّعب ببيت لحم

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: يوسف عيسى البندك

اسم الكتاب: ساعات في الجحيم

الطبعة الأولى: ١٩٣٩ عن مطبعة صوت الشَّعب ببيت لحم

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية

تصميم الغلاف: فاطمة حسين

لوحة الغلاف للفنان: جبرا إبراهيم جبرا

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

www.moc.pna.ps

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه المكتبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا. ونريد ان نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٠

ساعاتٌ في الجَحِيم

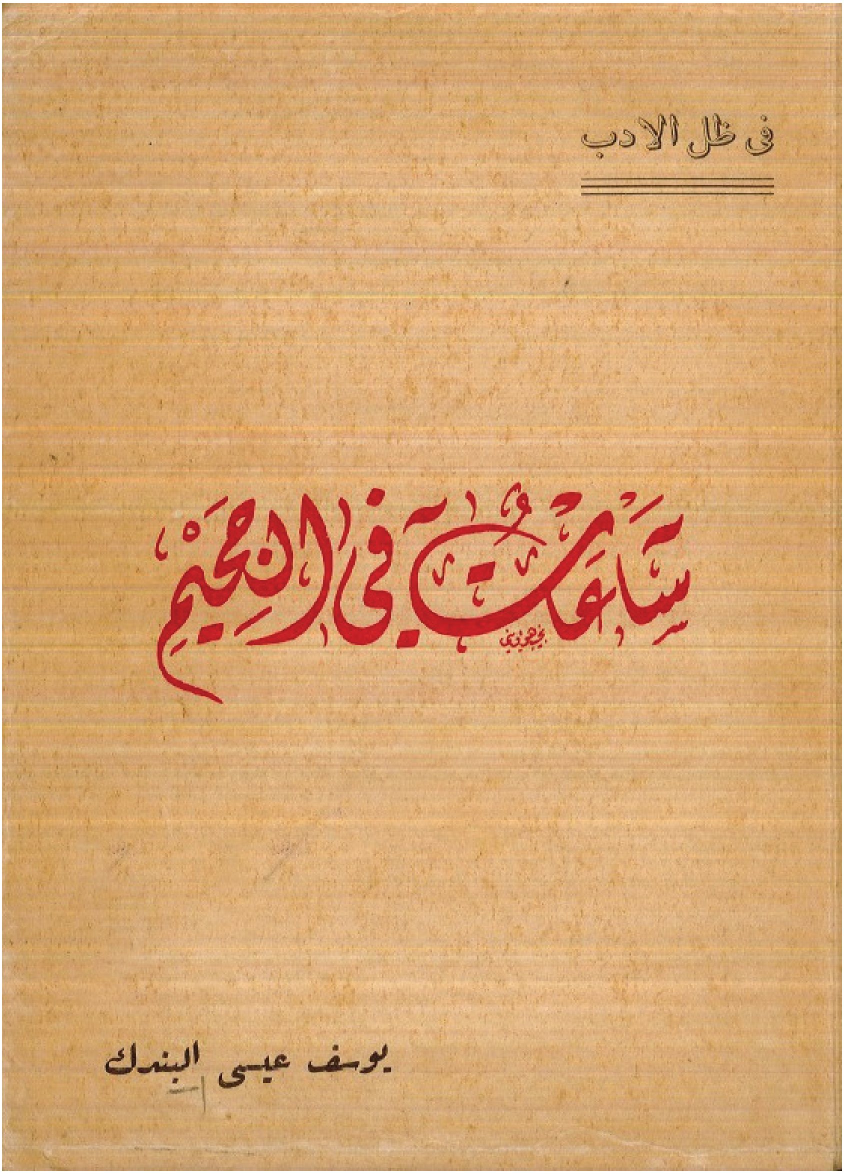

الغلاف الأصلي للكتاب

تقدمة الكِتاب

إلى صاحبِ السَّـماحةِ الزَّعيمِ الجليلِ الحاجِّ أمين أفندي الحسـيني،

قائـدِ الجماهيرِ العربيَّةِ المناضلةِ في فِلَسـطينَ، ونابذِ التَّعصُّبِ الرَّجعيِّ

الممقوتِ، ومنقذِ هذه البلادِ المقدّسـةِ من بين براثنِ الاسـتعمارِ،

أقـدِّمُ كتابيَ هذا: تحيَّةَ إعجابٍ وإخلاصٍ وولاء

يوسف عيسى البندك

مقدمة

هـذه شعل مـن اللهـب الأحمـر، فيهـا وصـف لرجعيـة المجتمـع الشـنيعة وفيهـا نقـد لنظـم الحيـاة الوحشـية، ثـم فيهـا فـوق ذلـك، تصويـر لآلام الجماهـير التـي تقـاسي أهـوال الاسـتبداد والظلـم وتُهـرَقُ دماؤهـا جزافًـا؛ إرواءً لظـمأ الرأسـمالية المكتسـحة التـي أوشـكت أن تغـرق الإنسـانية في طوفـان مـن النـار!

ولعـل في هـذه الفصـول توجيهـا ليِّنًـا محسوسًـا إلى آفـاق مـن الثقافـة الانسـانية تـشرق بالنـور الجديـد! ذلـك النـور الـذي أخـذ يخـترق سـحب الثقافـة السـوداء الحالكـة، التـي لوثـت روحيـة الحضـارة ولطخـت أهدافهـا الصحيحـة بدمـاء الضحايـا البشريـة المذبوحـة.

وإذا كان في هـذه الفصـول شيء مـن خلـق الخيـال، فهـو خيـال ممـزوج بالحقيقـة، قصـد إليـه القلـم قصـدًا؛ لتفسـير بعـض الحقائـق والآراء وعرضهـا بأسـلوب إلّا يكـن ممتعًـا كل المتعـة فلعلـه لا يثـير في النفـس كوامـن السـآمة والملـل!

والكتـاب مـن قبـل هـذا كلـه، أثـر مـن آثـار الضغـط الاسـتعماري والرجعـي الـذي يدفـع بالأدبـاء والكاتبـين الشـعبيين، إلى التمـرد والثـورة ثـم إشراك الجماهـير المضغوطـة، في هـذا الشـعور بالتمـرد والثـورة إشراكًا روحيًّـا خالصًـا.

ولقد ترددت في وضع عنوان الكتاب، ورأيت في البدء، أن يكون عنوانه في ظل الادب، إذ إن جميع الآراء التي سقتها فيه إنما سقتها «في ظل الادب». ثم قلت: ولكنها ثمرات تلك الساعات المضطربة التي كنت أقضيها في هذا الجحيم الإنساني، متأملا حانقا. وإذن، فليكن العنوان: «ساعات في الجحيم» وقد بقيت على هذا الرأي.

وقد نشرت فصولًا قليلة من هذا الكتاب في إحدى الصحف غير أنها نقحت هنا وزيد على بعضها.

«١»

منذ نحو ألفي سنة، انبعث الإشراق الإلهي في صدر الكون، زاهيًا نقيًّا يحمل في أطوائه صفاء العقيدة، وضياء الحق، وروح التسامح والوداعة والحب والإخاء والسلام.

طلع ذلك النور، في حلك الوثنية وظلمة الجهل، ليطهر القلوب من لوثة الكفر، وينتزع النفوس من براثن الحيرة، ويصقل العواطف ويهذب الشهوات ويمزق سجف الخرافة أباديد.

ولقد تجسد ذلك الإشراق ليتغلغل في الجماعات ويمتزج بالجماهير ويجعل من حياته أسوة في التواضع والتسامح والديمقراطية الصحيحة. ولعل تلك النفحات الروحية الخاصة التي بها في سخاء، قد مست النفوس مسًّا رقيقًا لا يخلو من العذوبة والمتعة. ولعلها قد هيأت الأذهان لقبول الحق السماوي ناصعا قويا لا يتسرب الشك إليه.

على أن ثعابين المجتمع المتقنعة بقناع الدين قد تضافرت على أن تسحق ذلك الصوت المجلجل، وتطفئ تلك الشعلة الهادية. فما برحت تنفث سمومها بين جماعات الشعب الساذجة حتى فرقتها من حوله ثم ألَّبَتها عليه، إلَّا أفرادًا قلالًا رسخ الايمان في قرارات قلوبهم فإذا سموم الكهنة ترتد من دونهم بعد أن تصطدم بصخرة الإخفاق والخذلان والفشل المرير.

ثم تنقلب الثعابين وحوشًا مفترسة فتنقض على ذلك الحمل الطاهر

وتغـرس مخالبهـا في جسـمه فـلا تنفـك تنهشـه وتهـزأ بـه وتعذبـه حتـى يلفـظ روحـه مبتسـمًا، عـلى رغـم الدمـوع التـي غسـلت وجنتيـه، مطمئنـا، كأنـه لم يتـأذَّ ولم يـذق مـن الألم والعـذاب شـيئا.

***

هـذه مخالـب الرجعيـة في الـشرق! أمـا في الغـرب، فقـد انسـلخت عصـور كان النـاس خلالهـا يتخبطـون في سراديـب الجهـل والخرافـة، وكانـت مخالـب الرجعيـة أثنـاء ذلـك تسـتعد وتتهيـأ ريثـما تقـع الفريسـة. حتـى إذا مـا بـرز بضعـة نوابـغ مـن أحـرار الفكـر ثـم انضمـت إليهـم أسراب مـن هنـا وهنـاك ثـم طفـق النـور يفيـض عـلى العقـول، تنبهـت الرجعيـة، وشـحذت مخالبهـا، فـإذا الكنيسـة دغـل يعـج بالوحـوش الجائعـة، وإذا الديـن الـذي بعـث نـورا وهـدى قـد صـار وسـيلة إلى التضليـل والدجـل. وإذا مـا في ذلـك الديـن مـن التسـامح والإخـاء والحـب يضحـي انتقامًـا فظيعًـا وطغيانـا جامحًـا وبغضًـا شـديدًا عـلي أيـدي وحـوش الكنيسـة الذيـن ابتذلـوا الديـن واتخـذوه ذريعـة إلى التفرقـة وخلـق الضغينـة، وسـفك الدمـاء في محاكـم تفتيشـهم ومجازرهـم الفظيعـة!

***

ثـم تمـر السـنون مـرور السـحابة. فـإذا الغـرب قـد قـوي ونـال حرسـته وإذا هـو قـد حطـم الرجعيـة وقلـم مخالبهـا التـي طالمـا أرهقـت الإنسـانية وانزفـت دمـاء الحضـارة. وتنظـر هـذه الوحـوش عـن يمـين وشـمال فـلا تـرى لهـا محيصـا عـن أن تنطلـق إلى الـشرق الضعيـف المنحـل الـذي وجـدت فيـه

أدغـالًا لوحـوش مـن نوعها وإن اختلفـوا عنهـا في اللبـاس والديـن.

وامتـلأت أدغـال الـشرق بهـؤلاء وهـؤلاء، فـإذا المسـلم والمسـيحي في نفـور، وإذا المسـيحي والمسـيحي في شـقاق، وإذا الحرمـان يعـود فيزدهـر حتـى في مهـد المسـيح! فويـل للمنتمـي إلى الكنيسـة الكاثوليكيـة إن هـو تـزوج مـن غـير المنتميـة إليهـا، والعكـس بالعكـس، إذ حينـذاك لا مفـر لـه مـن الحرمـان! ثـم ويـل لـه إن هـو قـرأ الكتـاب المقـدس أو حـاول أن ينظـر إلى النـور إذ مصيره بعـد ذلـك إلى النبـذ مـن حظـيرة الكنيسـة!

تـم ويـل لـه إن هـو تثقـف وأصبـح يـرى مخالـب أولئـك الوحـوش تمطـر بـدم الإنسـانية السـاذجة وثـار عليهـا، فهـو حينـذاك المـارق مـن الديـن.

ثـم يسـتغل الديـن مـن بعـد ذلـك كلـه في الغـرب والـشرق فـإذا هـو مطيـة للـمآرب السياسـية مهـما تكـن سـافلة، همجيـة، بربريـة.

ففـي ظـل الديـن تتقصـد الرجعيـة أن تمـزق بمخالبهـا الجبهـة الديمقراطيـة في إسـبانيا، والديمقراطيـة الشـعبية في مـصر.

وفي ظـل الديـن، قـد يتيـسر للرجعيـة أن تعرقـل بعـض المبـادئ الإنسـانية السـامية.

وفي ظـل الديـن، أيضـا، لا تعجـز الرجعيـة عـن أن تنهـش الحضـارة الإنسـانية بمخالبهـا الملوثـة، فـلا تنهـض الأقـلام الجريئـة، في ظـل الأدب، فتنـور الجماهـير العامـة في جحيمهـا وتنبههـا إلى حقوقهـا المسـلوبة، وتفهمهـا أنـه فـوق الغـرور ارتقـاب السـعادة الانسـانية قبـل القضـاء عـلى وحـوش

الرجعيـة والاسـتعمار القادمـين مـن الغـرب!

«٢»

عنـد صفـاء الليـل، وصفـاء السـماء، اعتـدت الجلـوس مـع صديـق مخلـص لا يتحـدث إلا في فـترة مـن صفـاء الكـون، يصفـو خلالهـا حديثـه ويترقـرق في التنفـس عذبـا سـيغًا.

ولقـد جلـس الليلـة إلى جانبـي عـلى ضفـة مـن ضفـاف النيـل، وكان القمـر مبتسـما تشـيع فيـه الطمأنينـة، ويفيـض شـعاعه الذهبـي عـلى صفحـة المـاء السـاكن فتتـلألأ فيـه روعـة، دونهـا روعـة النجـوم الخلابـة التـي غسـلها الليـل بظلمتـه.

انطلقـت أحدثـه عـن المتعـة النفيسـة التـي تغمـرني حـين يظلنـي الليـل، ويخلبنـي ضـوء القمـر المنعكـس عـن المـاء، وسـط السـكينة الشـاملة، غـير أنـه قاطعنـي قبـل أن أسترسـل في حديثـي وقـال:

- هـل قـرأت مقـال «الكاهـن الكاثوليـكي « الـذي حـاول فيـه أن يـبرر موقـف كنيسـته عـلى حسـاب الرجعيـة؟

- نعـم قرأتـه وضحكـت كثـيرا حـين أدركـت نظـرة الرجعيـة إلى الأدب؛ إذ يقـول حـضرة الكاهـن الكاثوليـكي في مقدمـة مقالـه إنـه يـرد عـليَّ لا في ظـل الأدب وحسـب، بـل في ظـل الحقيقـة والأدب. وكأن حضرتـه يظـن أن الأدب متنصـل مـن الحقيقـة مـع أن أولى مهـمات الأدب إبـراز الحقيقـة بعـد صقلهـا وتهذيبهـا وسـكبها في قالـب رائـع جميـل، وهنـا

قاطعني صديقي وهو يبتسم ولعله يسخر، وقال:

- يظهر أنك لم تقرأ المقال بكامله.

- لا بل قرأته بكامله ثم أعدت قراءته صباح اليوم إذ وجدتني حائرًا: لا كتاب آنس اليه، ولا صديق أبثه، ولا هازل إلهي النفس مزاحه غير هذا السخف المضحك الذي يحلو لي التندر بقراءته في أوقات الضجر.

قال:

– وهذا هو السر في سؤالي. إذ إني قرأت المقال فوجدته مضحكًا بكامله، لا بما جاء في مقدمته فقط.

– هذا صحيح على أن ما جاء في مقدمته أبعث على الضحك من كل ما جاء في المقال.

– أظن أن ما جاء في المقال بعد المقدمة، أشد إضحاكًا من المقدمة نفسها يا صديقي.

– كيف؟

– أو لم تسمع له يقول إن الوكر الذي يحارب الإنسانية المعذبة المظلومة بمناصرته للاستعمار الطاغي واعترافه به ورضاه عن مبادئه الهمجية، نعم، أو لم تسمع له يقول إن هذا الوكر الموبوء، غير وحشي وغير رجعي وغير معرقل لسير الحضارة وغير محطم

للمبـادئ الإنسـانية السـمحة! أو هـل تـرى أبعـث عـلى الضحـك مـن هــذا اللغــو الســخيف؟!

- لم يضحكنـي هـذا كثـيرًا لأنـه لغـو فـارغ لا يسـتطيع كاتبـه أن يخـدع بـه النـاس. أمـا تفريقـه بـين الحقيقـة والأدب ووضعـه الأدب في معـزل عنهـا، فهـذا أضحكنـي وبعـث في نفـسي أرق عواطـف الشـفقة والحـزن.

- دع فلسـفتك التهكميـة فأنـا أعلـم أنـك توافقنـي رغـم مـا تبديـه مـن مخالفـة، تلـذع أكـثر مـما تلـذ.

- أقسـم لـك أننـي لا أتهكـم، وسـواء أصدقـت أم لم تصـدق فدعنـا الآن مـن هـذا الحديـث الـذي لا طائـل تحتـه، فقـد خسرنـا جـزءًا ثمينًـا مـن هــذه الليلــة اللطيفــة المغريــة في حديــث كان الأولى بنــا أن ننــصرف عنـه كل الانـصراف لنتخلـص إلى حديـث القلـوب. فلـم يخلـق اللـه هـذا القمـر المنـير وهاتـه النجـوم البراقـة وهـذا الليـل الرائـق، وهـذا النسـيم الرقيــق الــذي يداعــب الوجــوه في رفــق ولــين، وهــذا الســحر المغــري الـذي يتدفـق مـن الطبيعـة، نعـم لم يخلـق اللـه هـذا كلـه إلا للقلـوب، لـو تـدري القلـوب.

قال:

- يظهر أنك أصبحت عاشـقا.

- أولا تدري أني ولدت عاشـقا؟!

- عدنا إلى الفلسفة؟!

- ليس فيما أقول شيء من الفلسفة. أو لم أقل لك مرارا أني منذ أحسست بالحياة استشعرت بالحب العميق إلى الجمال والرقة واللطف والتواضع؟ فأنا أعشق الجمال أبدا، في مثل ما أعشق الرقة والتواضع واللطف.

- وهل أغراك في القاهرة شيء مما ذكرت؟

- أما الجمال ففي ليل القاهرة، وأما التواضع ورقة الخلق والنفس والحديث، ففي الأستاذ الشاعر خليل بك مطران.

- الأستاذ خليل مطران شاعر والشعراء كما تعلم أرق الناس عاطفة وأرهفهم حسا. فما يكون غريبا أن يستهويك خلقه الرقيق أو تواضعه أو لطفه.

- اسمح لي أن أقول لك إنك مخطئ فيما تقول عن الشعراء: فلقد عرفت من الشعراء الأدباء أناسًا غلاظ النفوس، يضربون من العجرفة بسهم كبير.

- لقد فهمت الشاعر الأديب الذي تعنيه! على أني لست أعد هذا النوع من الناس شاعرًا، فحقيقة الشاعر شعور عميق جدا يتصل بالإنسانية من طريق الوجدان فلا يكون الشاعر شاعرًا صادقًا إلا إذا كان إنسانيًّا في كل ما يصدر عنه من قول وعمل.

- هذا حديث حلو كله الحق آمنت به منذ عرفت الشعراء، ويسرني جدًّا أن أجدك تدرك هذه الحقيقة التي عمي أو تعامى

عنها الأدباء فلقبوا بشاعر حتى أعنف الناس خلقا وأشدهم وحشية وأفظهم طباعًا.

- أخشى أن نتحول عن حديث القلوب إلى حديث العقول، وقد أوشكت روعة الليل أن تغيب، فهات حدثنا عما مس قلبك من نسمات الحب في القاهرة.

- أما نسمات الحب فلقد مست قلبي على ربى فلسطين وكان الحب في قلبي لا يرتكز إلا على الأمل، فلما عصفت رجعية الكنيسة بذاك الأمل ثرت للحب بل ثرت للقلوب، ولكن القلوب لا تدري.

- تلك قصة غرام حدثتني عنها وانتهت منذ شهور، ثم أنا أسألك أن تحدثني اليوم عن لفحات الحب، في القاهرة، فقلما يهبط القاهرة أديب دون أن تمس قلبه نسمات الحب مسًّا لا يخلو من المتعة والإلهام؛ ذلك لأنَّ في القاهرة من الجمال والفتون والسحر ما يغري العيون ويخلب الألباب.

- من الحق عليَّ لضميري أن أصارحك يا صديقي العزيز بأني لم أر هذا الجمال الذي تتحدث عنه إلا في ليل القاهرة حين يغفو الكون ويسيل شعاع القمر على النيل فيمتزج بالماء فإذا هو يكاد يضيء، وإذا النسيم يخفق من فوقه خفقان القلب اليائس وقد لاح له إشراق الأمل من وراء الأفق. فما هي إلا أن يعسل هذا الماء المذهب الذي انحلَّ فيه شعاع القمر الزاهي، عسلانًا يبعث على الغبطة.

- وهل نسـيت ما قلته لي بالأمس؟

- أنـت تـدري أني شـديد النسـيان عـلى أني رغـم ذلـك مسـتعد أن أسـتذكر كل مـا تذكـرني بـه. فـماذا قلـت لـك أمـس؟

- ألم تخـبرني أنَّـك أعجبـت بظـرف اللسـان المـصري، وحـلاوة مـا يفيـض عنـه مـن الحديـث حـين ينطلـق؟! أو لم تخـبرني أنـك عشـقت ألسـنة بعـض الفتيـات؟ ثـمَّ ألم تخـبرني أنَّـكَ وقعـت في إسـار بعـض العيـون الدعجـاء ذات الجاذبيـة والسـحر؟

- رعاك الله ما أقوى ذاكرتك! ولكنك نسـيت شـيئا واحد

- ماذا؟

- أو لم أخـبرك أن في نفـسي ثـورة لمـا يصيـب القلـوب المسـكينة مـن العسـف والخـذلان؟

- بلى.

- أوَليـسَ مـن حـق الإنسـانية عـلى الأدب أن يثـور لهـذه القلـوب المعذبـة المكروبـة التـي أضناهـا الشـقاء وأسـقمها الظلـم وكادت أن تتمـزق بـين مخالـب الرجعيـة؟

- بلى!

- وإذن فلنـدع حديـث الغـزل والعيـون إلى وقـت آخـر إذ أخـشى إن تماديـنـا فيـه، أن يلهينـي عـن الحملـة التـي أسـتعد لهـا.

- وأية حملة؟

- الحملة التطهيرية.

- عـلى الرجعية مجتمعةً أليس كذلك؟

- وعلى الاسـتعمار مجتمعة.

- لقـد انحدر القمر وتوارى فـ

فقاطعته بسرعة وقلت:

- بـل يخيل إليَّ أنه غطس في النيل،

فابتسـم ابتسامة ظريفة وقال:

- عـلى أي حـال، قـم بنـا نذهـب ففراشـك أولى أن يسـتولي عليـك مـن هــذا الليــل السـاحر. أو هــل نسـيت أنــك ستسـير غـدا إلى المعركـة الجديــدة في ظــل الأدب؟!

«٣»

عنـد الغـروب، جلسـت إلى إحـدى نوافـذ غرفتـي، أطـل منهـا عـلى السـهول

المنبسطة في قرارة الوادي، وقد كستها الطبيعة بشيء من نضارتها وحلاوتها وريعها، وأرمق الجبال الخصبة التي رسخت في أعماق الأرض واصطدمت رؤوسها بالشفق الأحمر، أو كادت.

ولقد كنت مرهف الحس أشعر بأعمق اللذة والمتعة حين أرسل البصر في هذه السهول وأنعم النظر في تلك الربى، وقد غمرتها السكينة وانسدل عليها ستار خفيف شفاف من الظلمة الممزوجة بالنور الشاحب.

ومن الحق، لقد كنت غارقة في تأملاتي كأنما كنت أبحث عن معنى بعيد، ذاب في أغوار السكينة. ولعلي إنما كنت أستلهم عزيمة قوية تساعدني في السير، في ظل الأدب؛ لتقويض ما شادته الرجعية الممقوتة من صروح سوداء أقيمت على أساس من الخداع والدجل والتعصب والظلم، وأضحت جحيمًا شيطانيًا تتعذب فيه الإنسانية وتحترق.

بينما أنا كذلك، دخلت على فتاة بارعة الجمال، وافرة العاطفة، طاهرة النفس، أضمر لها من الحب والإخلاص، ما قد ينفعها ولو إلى حين! ولعله ينفعني ولا ينفعها، أو لعله ينفعنا معا، لست أدري! وإنما الذي أدريه، هو أنها دخلت عليّ مشرقة الجبين، باسمة الثغر، فنهضت لأتلقاها بما عودتها من ترحيب قد لا يخلو من إثارة للعواطف.

ثم جلست إلى جانبي على حافة النافذة الواسعة وأخذت تحدق فيَّ وهي تتبسم في رفق. فلمحت في عينيها سرًّا مبهمًا يلمع كالبرق، ويتوهج كالشعاع ... فقلت:

- مالـك لا تتحدثـين؟ هـل وراء هـذه النظـرات العميقـة سرٌّ يحـاول الفـرار مـن بـين ضلوعـك؟

فتحركـت حركـة رشـيقة صـدت بهـا النسـيم الـذي هفـا إليهـا، صـدًّا بارعًـا، ولكـن أتـدري بمـاذا صدتـه؟ لقـد صدتـه بنهديهـا البارزيـن، ولعـل النسـيم لم يغضـب حـين أحـس بالقـوة الحيويـة التـي توشـك أن تتدفـق مـن ذينـك النهديـن، بـل قـل لعلـه فهـم أنهـا إنمـا صدتـه عـن نهديهـا لتصرفـه إلى مداعبـة خديهـا الناعمـين.

ومهـما يكـن مـن أمـر، فلـم تفعـل هـذه الحركـة في نفـسي بقـدر مـا فعلـت حمـرة شـفتيها حـين انفرجتـا لتنطلـق مـن بينهـما هـذه الكلـمات العذبـة:

- وهل بيننا سر؟

- وإذن، فلـماذا لجـأتِ إلى فـن العشـاق في التعبـير عـن خلجـات صدورهـم؟!

- تمهيدا للإفصاح.

- لي عندك رجاء

- رجاء! وما هو؟

- هـل قـرأت المقـال الـذي كتبتـه منـذ أسـابيع تحـت عنـوان «الادب الأحمـر»؟

- نعـم قرأتـه، فقـرأت فيـه نفسـك الثائـرة عـلى هـذه النظـم الفاسـدة، المتمـردة عـلى هـذا المجتمـع الملـوث.

- وهــل تذكريــن أني دعــوت فيــه الأدبــاء الى انتــاج الأدب ذي اللــون الأحمــر؛ لــون الحيــاة؟!

- أذكر جيدًا

- وهل تعلمين أن في شـفتيك معينًا من هذا اللون الاحمر؟!

فابتسـمت ابتسامة تفيض إخلاصا وقالت:

- تريـد أن تقـول إنـك ترغـب في رشـف شيء مـن هـذا المعـين لتقـوى عـلى صبـغ إنتاجـك بهـذا اللـون الأحمـر، الـذي تسـميه أنـت لـون الحيـاة والثـورة وأسـميه أنـا لـون الحـب؛ حـب الإنسـانية المعذبـة متمثلـة في قلـب مـن قلوبهـا المتصدعـة التـي تتلظـى في جحيـم الظلـم والرجعيـة.

- ما كنت أحسـبك مفرطة الذكاء إلى هذا الحد، فهات شـفتيكِ.

وانجذبـت إلي فضممتهـا إلى صـدري مـن غـير عنـف، فطوقتنـي بذراعيهـا تطويـق المـرأة المستسـلمة للسـابح الـذي أنقذهـا مـن الغـرق، وهنـا غبـت معهـا في قبيلـة طويلـة، انتهـت بهـذا الحديـث الـذي ابتدأتـه هـي بعـد أن تحـررت مـن قيـود العاطفـة وعـادت إلى مكانهـا الأول:

- عزيـزي! لسـت أحـب أن أعكـر صفـوك. عـلى أني لسـت أحـب أيضـا أن أكتمـك شـيئا حتـى وإن يكـن سـخيفًا غايـة السـخف.

- هكـذا أريدك فتكلمي من غير تردد.

- كنـت صبـاح اليـوم أعـترف للكاهـن في الكنيسـة، ويظهـر أنـه علـم بعلاقتـي بـك، فسـألني عـن ذلـك، فأفرغـت لـه صـدري وصرحـت لـه مـا أعرفـه فيـك مـن صفـاء الضمـير وحريـة الـرأي، حتـى في محاربـة نظـم الكنيسـة التـي لا تتفـق ومبـادئ المسـيحية في كثـير ولا قليـل، فاغتـاظ أشـد الغيـظ وأظهـرني عـلى تصميمـه عـلى حرمـاني وحرمـان عائلتـي بأسرهـا إن فكـرت فقـط في الـزواج مـن أي مسـيحيٍّ أرثوذكـسي، فكيـف بالـزواج مـن شـخص أرثوذكـسي مـن جهـة وملحـد! مـن جهـة أخـرى؛ لأنـه ينتقـد الكنيسـة ويثـور عـلى نظمهـا ويبغـض رجـال الديـن أشـد البغـض؟!

ولقـد تركتـه وخرجـت مـن الكنيسـة، حـيرى؛ لا أدري أأثـور وأنـا أعلـم أني عـلى حـق أم أخضـع وأنـا موقـن بـأني إنمـا اخضـع للرجعيـة.

قالـت ذلـك في لهجـة كانـت تضطـرب اضطرابـا يـدل عـلى مـا في نفسـها مـن ألم وثـورة.

ومـا هـي إلا ان طغـت نـزوة الحـب عـلى صدرهـا، فتبوَّغـت وجنتاهـا وطفـرت مـن عينيهـا دمـوع، لـولا حرارتهـا، لجـاءت أشـبه مـا تكـون بقطـرات النـدى حـين تتسـاقط عـلى الـوردة الحمـراء عنـد الفجـر.

ثـم مسـحت دموعهـا ونظـرت إليَّ نظـرة فيهـا كل العطـف والحـب وقالـت في صـوت مضطـرب رقيـق:

- ويل للأدب إن هو ظل راقدًا في فراش المرض والجمود ولم يعلن ثورته التحريرية الصادقة تخليصا للإنسانية من مخالب الوحشية، وتطهيرًا للمجتمع من لوثة التعصب، وانتصارًا لهذه القلوب البائسة التي تكابد العسف في الحب والحياة.

فما كادت تقف عند هذا القول حتى استشعرت بضريم أوشكت أعصابي أن تحترق في لهابه، فقلت، متأثرًا حانقا:

- بل ويل للأدباء الذين حطموا أقلامهم على صخور التملق والجبن، وانزووا في كهوف بعيدة لا تتصل بالعصر ولا تتصل بالبيئة، ولا تتصل بالحياة، وهم لذلك لا تصل إلى سمعهم الزفرات الحارة التي تصعد من قلوب اليتامى والمظلومين، ولا تصل إلى حسم الأنّات المتقطعة المؤثرة التي تنبعث من بين القيود في ظلمات السجن، ومن طيات اللبيب في جحيم الرجعة غير أن زلزال الأدب سيحدث قريبا، فلا يبقي لتلك الصخور أو هذه الكهوف أثرا.

***

يقولون إني ملحد لأني أنتقد الكنيسة وأكره رجال الدين، وما دروا يا عزيزتي، أني أن انتقد الكنيسة أو أكره رجال الدين، فلأني أحب الدين أعمق الحب، وأغار على صفائه أن يتعكر، فلقد جاءت جميع الاديان لنصرة الضعيف وحماية المظلوم وربط الانسان بأخيه الإنسان بشعور إنساني يفيض إخاء ورحمة وبرًّا، ولقد جاءت المسيحية بوجه خاص تجعل من أقصى حدود التسامح، أقصى حدود الفضيلة.

أفإذا جاءت الكنيسة ورجال دينها وانتصروا لهمجية الاستعمار وسوغوا له أن يدمر المدن الآمنة ويهدم البيوت الوادعة ويقتل الأطفال البريئة، ويغرس أنيابه في جسم الشعب الفقير المسكين المظلوم، أفلا تكون الكنيسة بعملها هذا قد ناقضت مبادئ الدين وهدمت أركانه؟!

وإذا جاءت الكنيسة ورضيت بالمبادئ الاستعمارية التي تتقصد استعباد البشرية أفلا تكون الكنيسة بعملها هذا قد خالفت جوهر الدين أقبح المخالفة؟!

وإذا جاءت الكنيسة وأعلنت حربها على الحركات التحريرية وعلى المبادئ الإنسانية السمحة التي تحارب الاستعمار والرجعية، أفلا تكون الكنيسة بعملها هذا تسحق أسمى مبادئ المسيحية؟!

ثم إذا جاءت الكنيسة وطفقت تغرس التعصب في قلوب الناس، والمسيحية دين التسامح، أفلا تكون الكنيسة بعملها هذا قد شوهت روح المسيحية تشويها فظيعًا!؟

فهل يا عزيزتي يقبل الناس مني أن أحارب الدين وانتصر للكنيسة أم أحارب الكنيسة وانتصر للدين الذي انقلبت عليه الكنيسة شر منقلب، وشوهت أسمى مبادئه؟

فقالت بصوت ثائر:

- كان يجب أن تنشر هذه الحقيقة بين الناس. فأنت تعلم يا عزيزي أن الشعب ساذج شديد الغرور؛ ولذلك فهو يفهم عن كل

مـن محـارب الكنيسـة أنـه يحـارب الديـن ولا يفهـم أن الأديـب حـين يحـارب الكنيسـة فـلا يحاربهـا إلا انتصـارًا للديـن.

***

وهنـا كان الليـل قـد تكاثفـت سـحبه، وبزغـت نجومـه وطلـع قمـره صافيًـا بسَّـامًا فقلـت:

- لسـت أرى مـن الصـواب يـا عزيـزتي أن نقـضي هـذه الليلـة بطولهـا في هـذا الحديـث الـذي لا ينتهـي. خصوصـا وأننـا الآن وحيـدان في هـذا المنـزل المنفصـل عـن المدينـة، فانتظـري الغـد وتعـالي في رابعـة النهـار لنسـتمتع برؤيـة الشـمس المشرقـة ونواصـل حدثنـا المتسلسـل.

وودعتها (من غير تقبيل) وهي تبتسـم وتقول:

- أعـد لنـا مكانـا في ذلـك البسـتان النضـير الـذي كنـت أشـاهدك فيـه منـذ أيـام تطالـع بعـض الكتـب.

فابتسمت وقلت:

- أولا تدريـن أن شـمس الصيـف شـديدة الحـرارة مـا يـكاد يطيقهـا الشـباب؟ فكيـف بزهـرة غضـة مثلـك؟

فقالت في اعتزاز:

- أو هل لا تتحمل حرارة القيظ من قويت على تحمل نار الاضطهاد والرجعية والظلم لتسير إلى جانبك في ظل الأدب؟!

«٤»

أفقت اليوم على صوت النسوة والصبية والرجال من المارة الذين حملوا أثمار حقولهم و ثروة مزارعهم من أبقال وخضار وفواكه و انحدروا بها من أعالي القرى الجبلية الخصيبة، ساعين إلى أسواق المدن المكتظة والبلدان الغاصة ليعوا فيها جهود الانسان و جهود الطبيعة بثمن زهيد لا يبغون من ورائه إلا قدرة الإنفاق على سد جوعهم وستر أبدانهم، من غير إسراف.

منظر جميل حلو ولكنه محزن ومؤثر! نعم جميل وحلو أن ترى القرويات والقرويين يزحفون إلى المدن مع الصباح، في عزم منيع وإيمان صادق وطهر وعفاف تجردت منه المدن أو كادت، غير أنه محزن ومؤثر أبلغ الحزن والتأثير أن ترى هذه الزرافات القروية الزاحفة النشطة الساذجة التي لا تعرف الكسل ولا تعرف النفاق، تمشي على حفافي الطرق مهشمة الأجسام، من شدة ما تلاقي في الحياة من رهق وعنت، مثقلة بنتاج أراضيها كالبهائم؛ لفساد النظام الاجتماعي السائد، مشعثة الشعر مغبرة الوجوه، ممزقة الثياب كأنها جيش البؤس خرج من معركة الشقاء.

يمـر هـؤلاء القرويـات والقرويـون كل صبـاح مـرورا بطيئـا لينـا لا يقـاس بطـؤه إلى سرعـة المدرعـات الحربيـة التـي تقطـع أقـصى المسـافات تعطشًـا إلى سـفك الدمـاء البشريـة الطاهـرة، ولا يقـارن لينـه بعنـف العواصـف الاسـتعمارية المجتاحـة التي اكتسـحت الحبشـة واندفعـت إلى جـوف الصـين وقلـب الأندلـس لتبطـش بالإنسـانية الوادعـة حتـى في عقـر دارهـا.

عـلى أن أحـدا منـا، رغـم اسـتمرار هـذا المـرور البطـيء اللـين، لم يلاحـظ فيـه غـير مـا تلاحظـه العصافـير التـي تظـل تسقسـق مـن خمائلهـا وأغصانهـا سقسـقة عذبـة تـدل عـلى أنهـا لا تفكـر في مصيرهـا.

ولعـل العصافـير معـذورة إذا هـي لم تفكـر في مصيرهـا حتـى ولـو أنهـا كانـت تسـتطيع التفكـير؛ ذلـك لأنهـا تحيـا حيـاة اشـتراكية سـعيدة لا تنغيـص فيهـا ولا زحـام. تبنـي أعشاشـها عـلى أيـة شـجرة، وتحسـو ماءهـا مـن أي غديـر، وتحصـل عـلى غذائهـا مـن أي حقـل، ولا ينـال مـن قيمـة ذلـك أنهـا عرضـة لخطـر الطيـور الـكاسرة، فالإنسـان أيضـا عرضـة لخطـر الإنسـان، والديـن أيضـا عرضـة لخطـر الكنيسـة.

ولكـن هـل نحـن معـذورون إزاء هـذا السـكوت بـل قـل إزاء هـذا الخـرس! لقـد أجـرؤ وأقـول إننـا أصبحنـا بـلا شـعور صـاف أو عاطفـة إنسـانية إذ إن كل عواطفنـا ومشـاعرنا غرقـت في الحيوانيـة.

ولكـن، وإن سـلمنا بذلـك، أفليـس واجـب الأدب أن ينبهنـا إلى هـذا كلـه؟ أو ليـس واجـب الأدب أن يسـمو بنفوسـنا عـن مغريـات الحيـاة السـافلة؟!

وإذن، أفلا يكون الأدب مجرمًا إن هو ظل مشدوهًا لا يرى وإن رأى فلا يحس وإن أحس فلا ينطق ولا يثور؟!

نعود ونسأل أنفسنا: هل هي جريمة الأدب أم هي جريمة الأدباء؟!

***

على هذا الشكل أحاور نفسي كل صباح، ولعلي أتمادى في هذا الحوار فلا أخرج منه إلا وفي نفسي ثورة وألم، على أني اليوم أنتظر الفتاة التي غمرتني بحبها وعطفها وغمرتها بحبي وإخلاصي، فلقد افترقنا بالأمس على موعد نلتقي فيه اليوم، فلأنزل إلى الحديقة، ولأتمرغ على الأعشاب المخضوضرة النامية من حول الأشجار والزهور، ولأنتظر قليلا أو كثيرًا ريثما يأتي الحبيب.

ولكن ها هو ساعي البريد يحمل إليَّ رسالة فما عسى أن تحمل في أطوائها؟!

- هاتها إليَّ هنا.

- تفضل

- شكرا جزيلا

- استغفر الله وأرجوه أن يطيل إقامتك في ظل الأدب، فانا عاشق آلمته الحياة وطعنته الرجعية في الصميم، ولكن ... أستودعك الله ...

- مع السلامة ... يا مسكين ... ومن لم تصبه طعنة الرجعية في

ورجع المسكين أدراجه ففضضت الغلاف فإذا في داخله رسالة من صديق لي في باريس يدرس الطب في السوربون، ويقول صديقي في رسالته أنه قرأ بشغف مقالي الذي غمزت فيه إلى بعض ما جاء في مقال «الكاهن الكاثوليكي» من أهازيل غير انه يلومني على سكوتي تجاه حقائق تاريخية حاول «الكاهن الكاثوليكي» محوها من صفحة التاريخ بأهزولة تلهي بعض الحين، ذلك أنه عمد إلى إنكار كون الكنيسة السبب في أفظع المجازر التي أهرقت دماء الإنسانية على مذبح التعصب الديني الممقوت الذي خلقته الكنيسة، وذلك أنه ستر وجهه «الجميل» وجاءنا يقول إن محاكم التفتيش لم تكن من صنع الكنيسة التي كانت تصب عذابها على الأبرياء وتنكل بهم أبشع التنكيل، وذلك أنه (حفظه الله) جاءنا يقول إن غاليليو من أبناء الكنيسة وهو لا يدري أننا اليوم في عصر النور وأن تلامذة المدارس الابتدائية أصبحوا يعرفون قصة الكنيسة مع العلماء وبخاصة مع غاليليو الذي خالف عقيدة الكنيسة بقوله إن الأرض تدور حول الشمس، إذ إن الكنيسة كانت تعتقد (ولا أدري إذا كانت لا تزال هذه عقيدتها) بأن الشمس هي التي تدور حول الأرض، وإذن فقد كفر غاليليو، وكان البابا يوم ذلك أريان الثامن، فأصدر أمره بتقديمه إلى محكمة التفتيش من أجل كتابه الذي نشره وكفر، في رأي الكنيسة، إذ قال فيه إن الأرض تدور.

ولقد لجا يوم ذاك كاستلي البندكتيني إلى إقناع الكنيسة بأن الذي يقول الحق لا يكفر ولا يهاجم مبادئ الكنيسة ساخرًا هازئًا، فكانت

نتيجة ذلك أن حنقت عليه الكنيسة فصبت عليه غضبها وطرد طردا لا يستطيع «الكاهن الكاثوليكي» أن يطرده من بين حقائق التاريخ.

وجيء بغاليليو ليمثل بين مخالب وحوش محكمة التفتيش المرعبة، فما كادت تحتويه محكمة التفتيش حتى أخذت تذيقه من العذاب المر والضرب القاسي والإرهاق العنيف ما أجبره على أن يخضع لسانه لظلم الكنيسة ويجثو أمام الكتاب المقدس مرغما ويقول إنه «يلعن ويحتقر العقيدة التي تقول إن الأرض تدور».

***

وهذه القصة لم تعد مستورة عن أعين طلاب التاريخ، كما لم تعد مستورة عن أعينهم قصة رئيس أساقفة إسبالا ترو الذي اتهمته الكنيسة بالكفر من أجل العلم فأُلقِيَ في غياهب السجن وظل يذوق العذاب الأسود والألم الرهيب إلى أن قضى نحبه في ظلمات العسف.

ولعلَّ طلاب التاريخ اليوم يعرفون من بعد هذا كله، قصة العالم الفيلسوف برونو الذي ألقته «رأفة» الكنيسة وسط اللهيب الأحمر ليحترق كما تحترق الأحطاب، لا لسبب إلَّا لأنه اعتنق العلم، وقد كان - ولا أدري إذا لم يزل - العلم كفرا في نظر الكنيسة.

هذا ما جاء في رسالة صديقتي المقيم الآن في باريس ويظهر أنه لم يفطن إلى أن الأديب الذي يرد على من يجهل أو يتجاهل حقائق التاريخ، فإنما يحط من قدره، و يضيع أوقاته في بحث انتهى منه الكتاب و

تواضعوا على صحته من زمن بعيد؛ ولولا ذلك لزدنا و قلنا فوق الذي تقدم إن مذبحة سانت بارتلمي التي يزعم «الكاهن الكاثوليكي» بتنصل البابا والكنيسة منها، تلك المذبحة التي يقول برانتوم إن كثيرة من اصدقائه طيبي العنصر، أضافوا إلى ثرواتهم بعدها عشرات الآلاف من الكورونات، نعم هذه المذبحة كانت نتيجة لتدابير الكنيسة وإرادة البابا، ويقول الكاتب الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه روح الثورات والثورة الفرنسية: ولم يبد السرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثالث عشر فقد أمر بضرب أوسمة خاصة تخليدا لذكراها «يعني مذبحة سانت برتلمي»!

***

على أي حال فلأخبئ الرسالة في جيبي الآن، فها هي حبيبتي قادمة بقوامها البديع ووجهها الوضاء، وجسمها المغري وفستانها الرائع، وحرام على من يقدرون الوقت أن يقضوه بطوله في حديث يثير السخط والحزن أكثر مما يثير الغبطة والرضا والسرور.

«٥»

لقد اقتربت، فلأنهض وأستقبلها في بشاشة ولباقة ولألثم ثغرها البسام كما يلثم الزهر نسيم الربيع المنعش حين يخفق من حوله مداعبا

رضيًّـا.

عـلى أني أخـشى أن يكـون كل هـذا، سـحابة مـن الأحـلام مـا تلبـث أن تنقشـع وتتبـدد كـما تتبـدد ظلمـة الليـل حـين ينشـق الفجـر وتبـزغ الشـمس بشـعاعها ووهيجهـا.

ذلـك أن شـيئا مـن الحـزن قـد تبـدى في أسـارير وجههـا الصـادق، ولعلهـا حاولـت أن تخفيـه بـكل مـا زودتهـا بـه طبيعـة الإنسـان مـن رقـة الأنوثـة وحنوهـا ومهارتهـا، عـلى أنهـا لم توفـق إلى مـا رغبـت فيـه كل التوفيـق. فلقـد تبينـت في إشراق وجههـا شـعاعًا منقبضًـا حزينًـا لا يخلـو مـن الشـحوب، ولقـد اسـتجليت في الابتسـامة المؤثـرة التـي اعـترت فاهـا، شـيئا كثـيرا مـن الألم تمـازج بجمالهـا فجـاء أبلـغ تأثـيرًا وأعمـق موقعًـا.

- أراكِ تتكلفـين الابتسـام وتتظاهريـن بالمـرح كأنمـا تحسـبينني، بعـد طـول مـا عرفتـك، لا أفهـم أن وراء كل هـذا التكلـف حرقـة وأسى وكأنمـا تجهلـين أن الحـزن متـى تغلغـل في القلـب الرقيـق تعـسر كبتـه أو إخفـاؤه وصـارت محاولـة سـتره أبعـث عـلى الحـزن مـن إظهـاره.

- عزيـزي! جلسـتنا اليـوم لـن تطـول، بـل لعلهـا أن تكـون لقـاء قصـيرًا جـدا، إلى بعـض دقائـق فقـط، ثـم نلتقـي بعـد وقـت قـد يقـصر قليـلا فـلا يبلـغ اليـوم وقـد يطـول قليـلا فـلا يزيـد عـن الاسـبوع.

- مـاذا حصـل؟! أخبرينـي حـالا، هـل فقـدت عزيـزًا ... أو مـاذا؟ لقـد تشـوقت أزهـار الحديقـة إلى التمتـع بجمالـك. أفـلا تدريـن أنهـا سـتتأذى كثـيرًا متـى سـمعت منـك هـذا الـكلام؟!

- ليـس الأمـر مـن الخطـورة بقـدر مـا تتصـور ولعـل أسـفي للأمـر الـذي سـأحدثك عنـه لا يزيـد عـلى أسـفي لخسـراني مجلسـك الحلـو في هـذا الصبـاح.

- إذن، صرحـي بحديثـك مـن غـير تبطـؤ فـإن سـكوتك لشـد مـا يضايقنـي ويزعـج أعصابي.

- لقد داهم بعض ضباط الاستعمار إدارة جريدتكم في هذا الصباح.

- خـبر مضحك للغاية.

- انتظـر قليلا لأكمل كلامي.

- انتظرت.

- وقـد اعتقلـوا والـدك بعـد ان فتشـوا إدارة الجريـدة تفتيشًـا دقيقًـا وأخـذوا بعـض الأوراق.

- هل تصدقين أني شـديد السرور؟!

- ماذا تعني؟!

- أوليـس فخـرًا أن يعتقـل المجاهـد ويسـجن ويسـام العـذاب في

سبيل الحرية والوطن؟! أو لا تدرين ان لـِ (سيشل) و (المزرعة) صفحة في تاريخ الخلود؟!

- أفهم كل هذا ولكن هلا تتألم لأبنائه الصغار الذين تركهم وراءه يسألون عنه كل حين فلا يجدون له إلا طيفًا خفيفًا يزورهم في غفوات أحلامهم في الليل فإذا تيقظوا وسألوا عنه لم يجدوا له أثرًا؟!

- ولكن ذلك من لوازم الاستعمار.

- أنا أقترح أن تقول لهم إذا سألوك عنه إنه في قبضة الاستعمار لكي يشبوا وفي قلوبهم بغض متأصل للاستعمار الشرس الذي غرس أنيابه في جسم الإنسانية.

- أوليس نصير المستعمر كالمستعمر في الجرم في حق الإنسانية؟

- بلى.

- إذن لم لا نقول لهم إن الاستعمار والرجعية تسعى إلى تعذيبهم وتعذيب ملايين من أمثالهم بهذه الطرق الهمجية الفظيعة.

- ولكن الرجعية التي تشير إليها تكره الاستعمار الإنجليزي وتضمر له السوء ...

- وماذا يفيد ذلك إذا كانت تدعو إلى استعمار آخر وتمهد له؟! أو لسنا نحارب الاستعمار باسم الانسانية؟! أو ليس من كان يدعو إلى أي استعمار مهما كان جنسه، يجرم في حق الإنسانية؟! بل قولي ألا يوجد في الصين وإسبانيا أطفال يذوقون أفظع من هذا العذاب ويصابون في ذويهم وأنفسهم بشظايا القنابل المحرقة التي يمطرهم بها الاستعمار الذي تناصره الرجعية؟! ثم ألست أكون أنانيًّا إذا ثرت على الاستعمار من أجل ما حل بأشقائي الصغار فقط؟! عزيزتي! الإنسانية المظلومة تعلن ثورتها على الاستعمار أيًّا كان جنسه وعلى أنصار الاستعمار سواء أكانوا بشرًا أم نوعًا منحطًّا من البشر. والأدب حين ينطق بلسان الإنسانية لا يميز بين جنس وجنس أو دين ودين أو استعمار واستعمار.

- لقد أقنعتني الآن. على أني أخشى أن تعتقلك السلطة.

- ولماذا تعتقلني؟ هل يؤذيها قلمي ما دام في ظل الأدب؟!

- المسألة بسيطة جدا. فوشاية مختلقة يصدقها الاستعمار كافية لاعتقالك. فنحن اليوم في عصر الوشايات. وعقل الاستعمار ضيق جدا لا يتسع لأكثر من وشاية كاذبة يتلوها ظلم وعدوان واستجبار.

- وما يضرني ذلك؟! أو هلا ترغبين لي في هذا الشرف العظيم الذي لا أستحقه!

- معـذرة لطيفـة يـا عزيـزي. لسـت أقصـد إلى ذلـك وإنمـا يؤلمنـي أن اراك بـين مخالـب الظلـم بعيـدا، تعـاني شـظف العيـش وقسـوة الحيـاة، لا لسـبب إلا لأنـك تكتـب مـا تلهمـه النفـس ويوحيـه الضمـير في صراحــة وصــدق. ثــم إني لســت أســتطيع الصــبر عــلى الشــوق، وأنــت تــدري أن الشــوق متــى انبعــث عــن حــب صــادق، ألهــب الفـؤاد وحـرق الأحشـاء.

- وهــل في ســجون الاســتعمار أفظــع مــما عرفــت القــرون الوســطى في محاكـم التفتيـش الكنسـية التـي كابـد فيهـا العلـماء والأدبـاء والفلاسـفة الشـقاء والعـذاب والظلـم بأبشـع صـورة؟! أو هـل في سـجون الاسـتعمار أفظـع مـما كان في الباسـتيل؟! وهـلا تذكريـن أن فولتـير دفعـه قلمـه إلى زيـارة الباسـتيل للمـرة الأولى؟!

- هما تقل فثق بأني سـأتعذب إن أقصاك الاسـتعمار.

- إذن قــولي لنفســك ولمثيلاتــك أن هــذا العــذاب مــن مســتلزمات الاسـتعمار. فهـل هـذا يرضيهـن؟! وإذن فليؤرجـن في صـدور مـن يحبـن نـار الجهـاد.

- ولكــن انــت تــدري يــا عزيــزي أن الاســتعمار متحكــم في الإنســانية فـلا تـكاد تتملـص مـن قبضتـه أمـة حتـى تقـع في قبضتـه أمـة ضعيفـة

أخرى، ويظهر أن طبيعة الاستعمار طبيعة وحشية، فهو ينقض على فريسته في رشاقة وبهلوانية سياسية بارعة فإذا ما نازعه خصمه عليها انقض على خصمه وانقض خصمه عليه والنتيجة في ضمير القدر. على أن الضعيف فريسة للمستعمر الغلاب في نهاية الأمر.

- لقد قلت إن عذاب الإنسانية من مقتضيات الاستعمار، وأزيد هنا وأقول إن الاستعمار نفسه من مقتضيات النظام الاجتماعي السائد فإذا نحن عمدنا إلى تحطيم الاستعمار فطريقنا هي أن نهدم النظام الاجتماعي السائد اليوم فإذا أضحت أسسه أنقاضا على أنقاض فعند ذاك نشرع في بناء المجتمع الجديد على قاعدة إنسانية صالحة تضمن للبشرية عيشًا رغيدًا وحياة سعيدة فيها كل الطمأنينة والأمن والرخاء، على أنه في الوقت نفسه ليس يمكن هدم النظام الاجتماعي السائد ما دامت تحميه حراب الاستعمار المسممة؟! وإذن، فعلى الأدب أن يجاهد من أجل الإنسانية، فالنصر حليفه متى تهيأت العقول لفهمه فهما صحيحًا. وإذا كانت مقاومة الاستعمار عالمية، فعسير جدا عليه أن يفترس بعد أن تفلت فريسته من بين مخالبه، كما تظنين.

- لم أفهم كيف يكون الاستعمار من مقتضيات النظام الاجتماعي السائد وكيف يمكن إيجاد نظام اجتماعي آخر يزول فيه الاستعمار.

- هـذا مـا سـأحدثك عنـه عندمـا نلتقـي بعـد أن أزور السـجن وأهنـئ والـدي بمـا نالـه مـن فخـر وشرف.

- إذن فاسـمح لي أن أعـود أدراجـي لأتـركك تنظـم أمـرك في هـذه السـاعات المضطربـة، وداعـا.

- وداعـا؛ لعل بعده لقاء قريبا.

«٦»

وقفـت حيـال السـجن مصوبـا نظـري إلى بابـه الحديـدي الضخـم المشـبك

بالقضبان. ولقد أوغلت في الخيال هنيهة لأتمثل نفسي في غيابة السجن بين الأبرياء و المجرمين، مقصيًّا عن شعاع الشمس، بعيدًا من ضجيج السوق، منعزلًا عن الطبيعة الجميلة، منقطعًا عن الحياة النابضة المنبثة في أرجاء القرية، محرومًا من لطف الأحبة وعطف الأهل وود الأصدقاء، مرغمًا على الصمت كالبلبل وقد سقط بين مخالب القطة.

فشعرت بأني في حاجة إلى الظلام لتطمئن إليه اعصابي وتأنس إليه عواطفي وتبثه نفسي ما فيها من كراهة للقيود، وثورة على الظلم، وأيقنت أن الظلام هو ذلك البحر العميق الذي في وسعي أن أغتسل فيه وأتطهر مما قد يعلق بي من أسباب الوهن والذل، وأغوص في أغواره مستعرضا ذكريات الماضي المشرق بكل ما انطوى عليه من عراك وجهاد، وبؤس تشركني فيه أغلبية البشر؛ ولذلك أدركت أن الشاعر كان صادقا كل الصدق حين قال:

يا ظلام السجن خيِّم إننا نهوى الظلاما

***

وأزفت الساعة المنتظرة فتقدم جندي ضخم الجسم، شتيم الوجه، جاحظ العينين، على وسطه مسدس بارز كأنه يقول: «أنا شعار الحضارة في هذا العصر» ودنا من رتاج السجن وفتحه بعد أن ذكر أسماء المعتقلين المسموح بزيارتهم. ولا تعجب من ذلك أيها القارئ. فالاستعمار لا يسمح لك أن ترى والدك إلا بإذن فهو لا يكتفي باغتصاب حرية العمل والقول بل يطمع في اغتصاب حرية النظر والشم أيضا،

وكأنـه يريـد مـن الإنسـان أن يكـون حيوانـا أخـرس مربوطًـا بالسلاسـل، لا يتحـرك إلا بـإذن ولا يفكـر في مصـيره بـل يسـاق إليـه سـوقا.

وولجـت إلى فسـحة السـجن مـع مـن ولجـوا، فـما اسـترعي انتباهـي إلا طفـل لا يتجـاوز الخامسـة مـن عمـره أمسـك بيـد والدتـه وهـرع معهـا لمشـاهدة والـده الـذي اعتقـل مـن غـير حـق. ونظـرت إلى أمـه فـإذا هـي منقبضـة الوجـه تنطـوي ضلوعهـا عـلى حـزن لمـا حـل بزوجهـا وعـلى ألم لحـسرة طفلهـا المسـكين الـذي بـدأ يصـارع طغيـان المجتمـع وهـو في دور الطفولـة المفـروض فيهـا المـرح واللهـو والـسرور.

ولكـن الاسـتعمار لا يقنـع إلا بعـد أن يهاجـم روضـة الطفولـة ويخبـئ وراء أزهارهـا عقاربـه وأفاعيـه حتـى إذا دنـا منهـا الأطفـال لسـعتهم وأفرغـت فيهـم سـمومها! ومـن أيـن لهـذا الطفـل أن يفقـه ذلـك؟! هـا هـي أمـه البائسـة تمسـح الدمـوع التـي طفـرت مـن عينيهـا إذ رأت زوجهـا مـن وراء الأسـلاك. وهـا هـو طفلهـا الوحيـد يـكاد يغمـى عليـه مـن شـدة البـكاء وقـد رأى الجنـد مـن حـول أبيـه وكأنـه مجـرم طغـى عـلى حريـة النـاس، وهـا والـده رمقـه بعـين الإشـفاق وينظـر إلى زوجـه متظاهـرا بعـدم التأثـر! ومـن الحـق إنـه لمشـهد أثـر في نفـسي إلى حـد بعيـد فـما هـي إلا لحظـة حتـى حولـت نظـري عنـه لأرى والـدي وقـد نظـر إليَّ مبتسـما متهلـل الوجـه يطفح جبينـه بالبـشر ويقـع في عينيـه بريـق جديـد كأنـه مـن صنـع السـجن! وإذ كنـت محزونـا لمـا رأيـت قبـل لحظـة مـن ذلـك المشـهد الرهيـب، وإذ كنـت مضطربـا حـين نظـرت إلى والـدي وأنـا متأثـر بمـا يحركـه في سر البنـوة مـن حـب وإخـلاص ينحـلَّان إلى نـوع مـن الألم النفـسي العميـق، فـما كان بـد

مـن أن تنطلـق مـن عينـي دمعتـان كأنهـما خلاصـة شـعور القلـب المسـتعر! ولسـت حتـى اليـوم أفهـم سر الدمـوع أهـي نـار القلـب تنصهـر في العـين أم هـي عصـارة العواطـف تفيـض عـن الجفـون أو هـي نـوع مـن الـدم يتدفـق مـن شـدة الفـوران؟!

في الدموع أسرار ومعان ولكن أين من يسـتطيع أن يكشـف لنا عنها؟!

***

تبادلنـا التحيـة والسـلام مـن خـلال الأسـلاك الشـائكة التـي تفصلنـا، وكان موقفـا غريبـا ولكنـه جميـل ومؤثـر، غـير أني مـا لبثـت أن قلـت:

- لـك حـظ حسـن؛ فلقـد أتيـح لـك أن تتـذوق مـرارة السـجن لـكي تـدرك قيمـة الحريـة.

فقال مبتسما:

- وقـد اسـتطعت أن اتـذوق فـوق ذلـك، حـلاوة الاضطهـاد؛ تلـك الحـلاوة التـي تغـذي القلـب بالعزيمـة والقـوة، والإيمـان الـذي يزلـزل الجبـال ولا يتزلـزل.

- يقولـون إن في السـجن ترويضًـا للنفـس عـلى الصـبر والشـعور مـع الجماعـة، ومثـل هـذا الصـبر والشـعور فضيلـة.

- ليـس هـذا فقـط بـل إن فيـه امتحانـا للرجولـة، فالرجـل المؤمـن يقـوى في محبسـه ولا يتخـاذل. والرجـل الحـر يعتـز في سـجنه ولا يسـتخذي.

والرجل متى كان مؤمنا حرًّا يتحمل أقسى العذاب راضيا مطمئنا لا يتسرب الوهن إلى نفسه؛ ذلك لأنه إذ يتحمل ذلك العذاب، فإنما يؤدي فريضة الحرية والإيمان والبطولة.

- أظن أن الوطني لا تكتمل وطنيته ولا يكون وطنيًّا صادقًا

قبل أن يشعر بالظلم والاضطهاد شعورًا مؤلما لعله يتوفر في السجن.

- الوطنية الصحيحة تحتاج إلى عقيدة صلبة لا تنفسخ، والعقيدة لا تقوى ولا تتصلب إلا متى لحق بها الظلم والاضطهاد، فللاضطهاد الفضل الأول في انتشار العقيدة المسيحية وتصلبها، وللاضطهاد الفضل الأول في ذيوع العقيدة الإسلامية وعظمتها، والاضطهاد نفسه هو الذي يعلمنا اليوم كيف يجب أن نكون جبهة شعبية متماسكة، على اختلاف أدياننا ومذاهبنا، فلا يستطيع الاستعمار أن ينال من مناعتنا الوطنية في كثير أو قليل.

- إذن يحيا الاضطهاد.

- يحيا السجن.

وهنا انتهى الوقت فعاد إلى حيث كان، وعدت من حيث أتيت، على أني لا أستطيع أن أخفي ذلك الألم الذي أحسست به حين رأيت شابا في مقتبل العمر واقفا قرب رتاج السجن يتوسل لرؤية شقيق له اعتقل منذ أسبوع فلا يسمح له بذلك، فيلح في الرجاء فيشتد عليه الآمرون في عنادهم، ولكنه عناد ينفع الأدب.

وما كدت أسير في شارع المدينة الواسع حتى سمعت دوي انفجار مخيف، ثم تجمع الناس فزعين، ثم تعالى نحيب النسوة وبكاء الأطفال، ثم تدفقت الدماء على الأرض، ثم نظرت فإذا أشلاء المصابين متناثرة هنا وهناك، وإذا وجه خال من الأذنين والعينين والأنف ويا له من منظر مرعب.

أما المسألة فهي أن قنبلة ألقيت على الأبرياء فذهبوا ضحية الظلم في البلد المقدس الذي يضم رفات المسيح وصخرة النبوة.

ركبت السيارة وعدت أدراجي إلى قريتي العظيمة، الخالدة فإذا أجراس الكنيسة تدق دقات حزينة متقطعة كأنها زفرات تصدر عن قلب مصدوع، وإذا جماهير غفيرة قد ازدحمت لتسير في جنازة ذلك الغني الكبير الذي مات اليوم، دون أن يترك وراءه أثرًا للإنسانية يذكر، ولكنه غني فسخرت وسخرت كثيرًا، وقلت: أترى تسير هذه الجماهير في جنازة الأديب الذي يعتصر قواه ويفني حياته في سبيل الإنسانية؟! ولكنه لا يملك من المال شيئا. ولكنه أغنى من الملوك بثروته العاطفية والفكرية والروحية! ولكنه مجتمع فاسد ... ولكنه ... ولكنه وفيما أنا أفكر في ذلك ساخرًا من هؤلاء الناس، وإذا بصوت رخيم يناديني، لعلَّه صوتها، فالتفتُّ فإذا هي مع بعض صديقاتها، فاستأذنت منهنّ ثمَّ مشت إليّ ومشيت إليها، والعيون حوادج.

«٧»

- من هؤلاء الفتيات اللائي كنت تتحدثين معهن الآن؟

- بعض صديقاتي

- هل يعلمن بشيء مما يربطني بك من أسباب الحب؟

- لقـد كـن يتجاذبـن أطـراف هـذا الموضـوع بالنفـس، حتـى إذا مـررت أهـبن بي وحاولـن أن يسـتقصين دفائـن نفـسي بطريقـة مـن المـزاح الـبريء.

- يبـدو لي أنك كنت ملذوذة بحديثهن.

- لا أنكـرك ذلـك. غـير أن تلـك اللـذة التـي كنـت أحـس بهـا وأنـا أسـتمع إلى مداعبتهـن الرقيقـة، قـد أثـارت ألمـا دفينًـا في صـدر صديقتـي سـلوى.

- لسـت أفهـم كيـف يـؤلم صديقتـك أن تكـوني ملـذوذة، ولعـلي أبعـد مـا أكـون عـن الوثـوق بصداقـة أهـل الارض بعـد الـذي عرفتـه في قلـوب الأصدقـاء مـن عفونـة الحـس ومـرض الريـاء ونذالـة الملـق.

- وهـل تعتقـد أن هذا من طبيعة البشر؟

- بـل اعتقـد أن مهمـة علـماء النفـس أن يبحثـوا عـن ذلـك مـن طريـق الاختبـار والتحليـل النفـسي الدقيـق.

- يخيـل إليَّ أن الحسـد والريـاء والملـق مـن أخـلاق هـذا المجتمـع لا مـن طبيعـة البشريـة مهـما يكـن رأي علـماء النفـس في ذلـك.

- عـلى أيـة حـال فالـذي أراه هـو أن المجتمـع الصالـح ينتـزع عنـاصر الفسـاد ويمسـح لوثـة السـوء مـن قلوب أفـراده.

- ومـاذا تعني بالمجتمع الصالح؟

- أعنـي المجتمـع العامـل الـذي يتسـاوى فيـه النـاس جميعـا فـلا عبيـد ولا أسـياد بـل رفـاق خلّـص يتعاونـون.

- أولا تظن أن المسـاواة التامة بين الناس تقتل الطموح؟

- إذا كان الطمـوح لاسـتغلال الشـعب واسـتعباد الجمهـور فأنـا أوافقـك عـلى أن المسـاواة تقتلـه وتمحـوه إذ لا يعقـل أن يتسـاوى مـن يعمـل لخـير البـشر مـع مـن يعمـل لمنفعـة نفسـه، مسـتنزفا تلـك المنفعـة السـافلة المجرمـة مـن دمـاء الجماهـير المجاهـدة! أمـا إذا كان الطمـوح لتذليـل مصاعـب الحيـاة وترفيـه حيـاة الشـعب والسـمو بالفـن إلى آفـاق الجـمال، فالمسـاواة تغـذي مثـل هـذا الطمـوح وتجلـوه. فالعبـد مثـلا، لا يسـتطيع أن يبـاري أسـياده في النبـوغ ولا يجـد سـبيلا إلى تحقيـق طموحـه إلى الظهـور والشـهرة وبلـوغ السـعادة مـا دام المجتمـع الـذي يعيـش فيـه لا يسـمح لـه بـأن يقـف عـلى قـدم المسـاواة مـع أسـياده، بـل يحتقـره مهـما يكـن ذ كيًّـا أو نابغًـا لأنـه مـن الطبقـة الذليلـة التـي يجـب أن تظـل راسـفة في أغـلال العبوديـة! أمـا المجتمـع الـذي لا يوجـد فيـه العبـد والسـيد، أعنـي المجتمـع الـذي يتسـاوى فيـه جميـع أفـراده، فهـذا المجـال مفسـوح لأي فـرد لإبـراز كفاءتـه وتحقيـق مطامحـه.

- أوافقــك كل الموافقــة فيـما تذهــب إليــه مــن رأي. فلــو تحققــت المسـاواة في هـذا المجتمـع الفاسـد لمـا اسـتطاع ذلـك الشـاب الفاسـق أن يغتصـب صديقتـي سـلوى، مـن بـين ذراعـي حبيبهـا لأنـه في عـرف هـذا

النظام الاجتماعي السائد، من طبقة أرفع وأغني من طبقة حبيبها المخلص.

وهنا لمعت في عيني سلوى اشعة حزينة فأشاحت بوجهها عنا متأثرة كأنما كانت تنصت إلى محاورتنا الهادئة وهي تكظم عواطفها المتدافعة، الساخطة على هذه التقاليد الخرقاء أشد السخط، فقلت إلى صاحبتي:

- هيا بنا إلى الحديقة نصرف فيها بعض الوقت في لون من الحديث تختلط فيه اللذة بالألم ويمتزج فيه الجد بالهزل! ولعل أزهار الحديقة ستسكر من أنفاسك العطرة! ومشينا نحو الحديقة فقالت ونحن نسير سيرًا غير حثيث ولكنه أيضا غير بطيء:

- وهل تحس الأزهار فتسكر؟!

- لندع عنا الهزل الآن. ولكن هل تظنين أن بهائم المجتمع تحس أكثر مما تحس الأزهار، لو سلمنا بأن الأزهار تحس؟! هل يحس هؤلاء الوحوش الذين يمزقون الأطفال في إسبانيا ويقطعون الأكباد في الصين وينسفون القرى في فلسطين؟! ثم هل يحس من يهلك الجماهير ويمتص دماءها ويفسد عليها حياتها وهو يتلذذ على فراش وثير، آنًا يعاقر الخمرة وآنًا يضاجع النساء.

وهنا وصلنا الحديقة وجلسنا على الحشائش الخضراء الكثيفة فقلت لصاحبتي:

- أرجو أن توضحي لي مسألة سلوى، هذه الضحية المسكينة.

- وهـل نسـيت حضرتـك أنـك وعـدت أن تـشرح لي كيـف يكـون الاسـتعمار مـن مقتضيات النظـام الاجتماعـي السـائد وكيـف يمكـن بنـاء مجتمـع آخـر فاضـل يـزول فيـه الاسـتعمار؟

- لم أنـس ولكـن هـذا حديـث قـد يتشعب بنا فسـوف أرجئـه إلى وقـت آخـر. ولكـن أخبرينـي الآن مـا هـي قصـة سـلوى، هـذه الفتـاة التـي يحـار اللسـان في وصـف جمالهـا وظرفهـا وخفـة روحهـا؟

- كانـت صديقتـي سـلوى متعلقـة بشـاب فقـير تربطهـا بـه صـلات مـن الحـب والإخـلاص، وحـدث أن أرغمهـا أهلهـا عـلى الـزواج مـن شـاب آخـر لعائلتـه سـطوة وجـاه و بـين يديـه ثـروة يتلاعـب بهـا كـما يتلاعـب الطفـل بـذرات الـتراب، ورغـم أنهـا حاولـت أن تتخلـص مـن آلامهـا وتأنـس في كنـف زوجهـا الـذي اشـتراها متاعًـا لجسـمه وإشـباعًا لشـهواته، فقـد اسـتحوذ عليهـا اليـأس ومـا اسـتطاعت أن تقيـم معـه أكـثر مـن شـهرين!

- هل وقفت على أسـباب ذلك؟

- فهمت أن أسـباب انفصالها كانت تافهة إلى حد ما؟!

- غريـب! كيـف تكـون أسـباب تافهـة كافيـة لفصـل زوجـين ولمـا يمـض عـلى زواجهـما أكـثر مـن شـهرين!

- أيـن الغرابـة في ذلـك مـا دام زواجهـما لم يقـم عـلى أسـاس مـن الحـب المتبـادل؟! بـل مـا دام قلـب الزوجـة لغـير زوجهـا، بـل لحبيـب آخـر

مظلـوم.

- في الحـق إن مثـل هـذا الـزوج دون البهائـم نفسـية. إذ كيـف يسـوغ لنفسـه الـزواج مـن قطعـة مـن اللحـم خاليـة مـن القلـب النابـض بالحـب؟! أليسـت هـذه هـي طبيعـة الحيوانـات الدنيـا؟! ثـم ألا يـدل هـذا عـلى أنـه زوج فاسـق مجـرم لا يهمـه ممـن يتـزوج أكـثر مـن أن تفـي بإشـباع شـهواته الحيوانيـة السـافلة غـير مبـال بالسـعادة الزوجيـة التـي تحيـا في ظـلال الحـب الطاهـر.

- الـذي أراه هـو أن أبويهـا هـما المجرمـان الأساسـيان في هـذه الجنايـة الإنسـانية الفظيعـة. فهـما اللـذان أرغماهـا عـلى الـزواج منـه إرغامًـا لم تقـو عـلى دفعـه.

- بـل إن التقاليـد والنظـم الرجعيـة هـي المجـرم الأكـبر قبـل كل شيء آخـر. فهـي التـي نخـرت العقـول ولوثـت الأدمغـة وطمسـت النـور بظلامهـا المرعـب. وهـي التـي سرت سريـان المـرض الفتـاك حـين لم تجـد عقـولا جبـارة توقفهـا عنـد حدهـا ثـم تبددهـا كـما الهبـاء. وإن واجـب الأدب اليـوم أن يثـور عليهـا ويبـين فسـادها وينظـف الحيـاة مـن قذارتهـا.

ومـا انتهيـت مـن هـذا الحديـث حتـى عقبـت هـي عليـه بجمـل عذبـة ممتعـة ثـم افترقنـا عـلى أن نلتقـي في الحديقـة بعـد انقضـاء الأسـبوع.

«٨»

تـصرم الأسـبوع، ولكنـه أسـبوع حافـل بالأهـوال، طافـح بالمـآسي، أغـرق القلـوب بالحـزن كأنمـا بـه ينبـوع مـن الألم السـاري! والتقينـا في الحديقـة في الموعـد المضروب وقـد علـت وجهينـا كـدرة تنـم عـلى مـا يخلجنـا مـن أسى. ولقـد شـغلنا أنفسـنا في الحديـث عـن السياسـة الاسـتعمارية الخبيثـة التـي تنفـث سـمومها الفتاكـة في قلـب الإنسـانية الوادعـة العـزلاء.

وما هي إلَّا أن تبسَّـمت صاحبتي وقالت:

- لقـد قـرأت لـك منـذ ايـام قطعـة تقـول فيهـا: «مـن الحـق، لقـد كنـا نتـألم إذ كنـا نقـرأ أن الطائـرات قـد قذفـت قنابلهـا في بلـد مـن بـلاد إسـبانيا فحصـدت مئـات الأنفـس وأزهقـت آلاف الأرواح. ولعـل تألمنـا لمـا يقـع في الصـين مـن فظاعـة الاسـتعمار المعـزز بالقنابـل لا يقـل عـن تألمنـا لمـا يجـري في ربـوع الأندلـس؛ ذلـك أننـا حـين نتخيـل المدينـة الآهلـة المطمئنـة تزخـر شـوارعها بالأطفـال الأبريـاء، والعـمال الناشـطين، وتمـوج طرقاتهـا بالنسـاء القـاصرات والشـيوخ الذيـن انخـرع متنهـم أو كاد، والشـباب العـزل الذيـن لا سـلاح لهـم إلا عزيمـة الفتـوة، أجـل حـين نتخيـل كل أولئـك تنصـب عليهـم نـيران القنابـل فتلتهمهـم كـما تلتهـم الهشـيم، تهتـز مشـاعرنا حزنًـا وترتجـف أعصابنـا تأسـيا، وتشـملنا سـحابة كثيفـة مـن الثـورة عـلى هـذا الظلـم الفـادح، الـذي يمـزق كبـد الإنسـانية أعنـف التمزيـق ويخـدش وجـه الفضيلـة أشـنع الخـدش ويلسـع ضمـير الحيـاة لسـعًا لا يشـعر بـه إلا قلـة مـن النـاس .. الـخ. فمـن هـي هـذه القلـة مـن النـاس التـي تعنيهـا؟!

- هـي هـذه الجمهـرة مـن الأدبـاء المخلصـين الذيـن أرهفـوا آذانهـم وقلوبهـم وأصغـوا إلى أنـات الجماهـير، وصرخـات الإنسـانية، وجعلـوا مـن هـذه الأنـات والصرخـات مصـدرا للوحـي يسـتلهمون منـه أقـدس المعـاني وأروع الأفـكار.

- لعلـك تعنـي الكتـاب الاشـتراكيين الذيـن ينظـرون إلى الحيـاة نظـرة إنسـانية شـاملة ويعتـبرون الجماعـة البشريـة جسـما واحـدًا إذا مـا مـس الألم عضـوًا مـن أعضائـه سرى ذلـك الألم في سـائر أعضـاء الجسـم، وإذا فقـأ الاسـتعمار إحـدى عينـي ذلـك الجسـم اهتـز الجسـم كلـه مـن الألم. وإذ كانـوا هـم عضـوًا مـن أعضـاء الجسـم البـشري فليـس غريبـا أن يحسـوا بالعـذاب الـذي يصيـب بعـض أعضائـه الاخـرى.

- وليـس ذلـك فقـط، بـل هـم فـوق هـذا يفهمـون أن الغـذاء الـذي يدخـل إلى هـذا الجسـم يجـب أن يتـوزع عـلى جميـع الأعضـاء بالتسـاوي؛ ليقـوى هيـكل الجسـم وينمـو كل عضـو مـن أعضائـه نمـوًا طبيعيًـا متسـاوقا يتكافـأ ونمـو باقـي الأعضـاء؛ لأنهـم يعتقـدون الأخـير في الجسـم إذا شـلت إحـدى يديـه أو بـترت سـاقه أو سـملت عـين مـن عينيـه أو انطفـأ نورهـا! وهـذه الفكـرة الاشـتراكية التـي ترينهـا تختلـف عـن الفكـرة المنحطـة التـي تريـد أن تـصرف غـذاء الجسـم بكاملـه إلى عضـو معـين ينمـو وحـده ويـترك بقيـة الأعضـاء تنحـل ويـدب فيهـا المـوت.

- ولكـن هـذه الفكـرة المنحطـة التـي تذكرهـا ليسـت منحطـة فحسـب،

بـل هـي فـوق ذلـك مجرمـة غايـة الإجـرام إذ إنهـا تجنـي عـن قصـد ...

- ومـع ذلـك فقـد سـجدت لهـا ملايـين العقـول وعـلى أساسـها قـام الاسـتعمار في الغـرب المتمـدن.

- وإذن فعـلى أسـاس الفكـرة التـي تناقضهـا - أعنـي الفكـرة الاشـتراكية - يجـب أن نحطـم الاسـتعمار ونهـدم أركانـه.

- عـلى الأدب أن يـؤدي رسـالته المثـلى بنـشر هـذه الفكـرة وتحليلهـا وتعميمهـا حتـى تختمـر في العقـول وتـشرق في الأذهـان.

- لعلك تريد من الأدب أن يكون اشـتراكيًا.

- ومتـى كان الأدب اشـتراكيًا فهـو الرسـالة الإنسـانية العظمـى التـي تخلـق البطولـة والتضحيـة والإخـاء والتسـامح وتسـمو بالفكـر والعاطفـة معـا سـموا تتطامـن دونـه مغريـات المـادة وسفاسـف الحيـاة.

- مـا أكـثر مـا يتفـرع بنـا الحديـث حتـى ننسى مـا كنـا نريـد أن نقولـه. والآن قبـل ان أنـسى قـل لي هـل رأيـت تلـك المـرأة المخبولـة التـي كانـت تتخبـط في الازقـة كأنهـا تمـشي عـلى جمـر مـن النـار؟

- لقـد رأيـت في هــذا الصبـاح عجـوزًا متربعـة عـلى الأرض تعبـث بالحجـارة. وكان منظرهـا مفزعًـا إلى حـد مـا. فقـد ربـض الغبـار في تجاعيـد وجههـا وتهـدل شـعرها المشـعث في شـكل يـدل عـلى البـؤس والشـقاء. وقـد زاد في غرابـة منظرهـا ذلـك الثـوب الممـزق الـذي كان عليهـا وقـد ظهـر فيـه البـلى والخلوقـة، وقـد خيـل إليَّ وهـي تحـدق في

الهـواء، أنهـا لا تـرى.

- لقد انطفأت عيناها من شـدة البكاء.

- لعل مـن جنونها أنها تبكي كثيرًا.

- بـل إن بكاءهـا وحزنهـا هـما سـبب جنونهـا، وليـس جنونهـا سـبب بكائهـا وانتحابهـا.

- وإذن فـما هي قصتها؟!

- هـذه أم ثاكلـة شـاهدت أولادهـا الثلاثـة وهـم يلفظـون أنفاسـهم عـلى مشـانق الاسـتعمار! فاندلعـت النـار في أحشـائها وتحرقـت نفسـها حسرة وانطلقـت تسـبح في دموعهـا مـن غـير جـدوى، ولعلهـا تـرددت في تصديـق مـا شـاهدته مـن هـول ومصيبـة، ومـن هنـا اختـل تـوازن عقلهـا وتغشـت بصرهـا سـحابة سـوداء كثيفـة! ولقـد ضاقـت ذرعًـا بهـذه النكبـة وتبرمـت بالحيـاة وهـا هـي كـما رأيتهـا هائمـة عـلى وجهها لا يسـتقر لهـا قـرار.

- إذن ففـي هـذه العجوز قصة مـن الظلم قد ينتفع بها الأدب.

- وإني لآمـل أن اقرأهـا في صـوت الشـعب، في عـدد الأسـبوع القـادم مدمجـة بقلمـك الثائـر.

- أولم يصلـك خـبر «صـوت الشـعب»!؟ فلقـد أصـدرت السـلطة أمـرًا بتعطيلهـا مـدة سـنة كاملـة.

- هل تمزح؟

- لست أمزح وإنما أقرر حقيقة وقعت.

- وهل نحن في بلاد دكتاتورية فاشستية؟! بل أين الديمقراطية التي يتبجح بها الإنجليز؟ إلى هذا الحد يجرمون في حق حرية الفكر ويحتقرون أسمى مبادئ الديمقراطية؟!

- الاستعمار لا يعرف الديمقراطية يا أمل، أو هو يعرفها ولا يريد تطبيقها. وقد يوجد هناك نوع من الديمقراطية الاجتماعية عند الدول التي تزعم بأنها حامية الديمقراطية، على أن هذا النوع موجود بصورة طفيفة في أوطان هذه الدول فقط، حيث جاهدت الجماهير في سبيل حريتها وأراقت دماءها هدرا لبلوغها وتحقيقها، والديمقراطية هناك ديمقراطية برجوازية قريبة جدا من الفاشستية. أما في البلاد التي تتسلط عليها هذه الدول وتستعمرها بقوة المدفع فهي تسير هناك على نظام وحشي أفظع من نظام الدول الدكتاتورية!! أوهل يعقل أن يسمح أي قانون ديمقراطي في العالم بتعطيل صحيفة مدة سنة كاملة لنشرها رأيا حرًّا يجب أن تطَّلعَ عليه الجماهير؟!

- ولكن العجيب أن جميع صحفنا اليومية الكبرى - أعني الصحف الفلسطينية - لم تنتقد هذا التصرف الاستعماري المجحف ولم تشر إليه في كثير أو قليل.

- ليس الذي تقولين عجيب بل العجيب عكس ذلك، فجميع هذه الصحف مأجورة. بل هي أبواق استعمارية كل منها تدعو إلى لون من ألوان الاستعمار الأوربي والثقافة الاستعمارية.

- ولكن كيف يبيع هؤلاء الصحفيون عقولهم.

- إذا صح أن لهم عقولا فهم إما لم يستخلصوا لهم من ثقافتهم مبدأ صحيحًا يسيرون في ظله، أو تكون ثقافتهم استعمارية محضة.

- إني أعجب كيف لا يكون لهم مبدأ في الحياة يدعون إليه؟!

- مبدأهم القرش.

- ويل للأمة التي تدين صحافتها بمبدأ القرش.

- لا تيأسي فقد فتح الشباب الحر عيونه ولسوف تعترك آراؤه الناضجة التحريرية مع هذه العقول العفنة الاستغلالية التي تتاجر على ظهر الشعب ولسوف تصعقها صعقا.

- ولكن من يجترئ أن يصاول هؤلاء الصحفيين؟

- كل حر جريء

- كم أعجب بالشباب الذي يحرر عقله من كل القيود.

- وإذن بمن تعجبين؟

- سمعت أن بعض اصدقائك قد عرضوا عليك وظيفة تتقاضى من

ورائها راتبا لا يدره عليك الأدب.

- أما أن الأدب يدر عليَّ أو لا يدر عليَّ فليس هذا مما يهمني كثيرا ولا قليلا، والذي يعيش للفن غير الذي يعيش للقرش أما الوظيفة التي تشيرين إليها فقد عرضوها على وأنا في أقسى الظروف؛ والدي في غيابات السجن مع الأحرار، وصحيفتي معطلة بأمر السلطة. ومصير عائلتي معلق بي وحدي، على أني رغم ذلك كله رفضت تلك الوظيفة أعنف الرفض؛ لأن الوظيفة في البلاد التي اغتصب الاستعمار حريتها، إنما هي قيد مزخرف وما كنت يومًا لأرتضي القيد لنفسي مهما يأتِ مع ذلك القيد من ربح مادي أزدريه وأسخر منه.

وهنا تبسمت وتحركت حركة خفيفة كأنما سرت في ثنايا قلبها موجة من الحب لم تتمكن من حصرها أو كبحها. وكانت فترة صمت صغيرة عقبتها دعابة ووداع لطيف حتى إذا نظرت إليَّ أمل من بعيد لوحت لي بيدها ولوحت لها بيدي.

«٩»

- في وجهك أثر من الحريق كأنَّك من سكان المناطق الحارة ذات الشمس المحرقة.

- هل تعلمين سبب ذلك يا أمل؟

- يخيل إليَّ أنك قمت برحلة في الجبال.

- لقد قصدت إلى بلد في الشمال لبعض أغراضي. ولا يذهب عنك أن الحرارة هناك عنيفة تسفع الجسوم سفعًا يبين أثره جليا فيمن يتعرض لها ممن يقطنون القرى المعتدلة الطقس.

- وهل في جعبتك شيء من أخبار الشمال حيث يناضل المجاهدون نضالا نبيلا أدهش الناس وروع الاستعمار.

- لقد ركب معي في السيارة بعض الفلاحين في منتصف الطريق فسألتهم أين كانوا وإلى أين يقصدون. فأجابوا أنهم قبل لحظات فقط قد خرجوا من غياهب السجن وأنهم متوجهون نحو عائلاتهم القلقة. ثم استفسرتهم عن خواطر المساجين فقالوا إن السجناء الوطنيين يتحملون أفدح الظلم والقسوة في رضا واطمئنان دون أن يتطرق اليأس إلى نفوسهم وإن أغلبهم قد زجوا في السجن من غير أن يعلموا سبب ذلك ودون أن يلقى إليهم أي سؤال بقصد التحقيق أو غير ذلك.

- عجيب جدًّا.

- وفظيع جدا أيضا.

- لا أستطيع أن أتصور كيف يجوز إلقاء الأبرياء في أعماق السجون دون التحقيق معهم أو مناقشتهم في التهم المنسوبة إليهم، هذا

منتهى الظلم والاستبداد.

- ومتى كانت طبيعة الاستعمار غير الظلم والاستبداد؟

- ولكننا نعيش في القرن العشرين، في عصر النور وهذا ظلم لم تعرفه القرون الوسطى.

- من النزاهة والإنصاف ألا نغفل أمر محاكم التفتيش التي كانت تديرها الكنيسة وتشرف عليها في القرون المظلمة. فقد كان رجال تلك المحاكم يختطفون الرجل من ذراعي امرأته ليلا وهو راقد في سريرها ثم يحرقونه أو يصلبونه أو يخفونه في غيابات السجن إلى أمد طويل دون أن يعلم سبب ذلك أو يناقش فيه. ولقد كانت تلك المحاكم الكنسية تحكم في بعض الأحيان على رجل قضى نحبه منذ خمسين سنة خلت فتعمد إلى نبش قبره وحرق رفاته ثم تمعن في الانتقام فتصادر أملاكه وتغتصب ما تركه لأولاده الأيتام من إرث وتذرهم يتقلبون على جمر الفقر والبؤس. ويكفيك من ظلم تلك المحاكم الكنسية أنها كانت تعذب من يقرأ الكتاب المقدس تعذيبا شنيعًا لا ينتهي إلا بالموت.

- يبدو لي أن الذين سموا هذا العصر بعصر النور قد كلفوا أنفسهم شططًا كبيرًا، إذ كان الأجدر بهم والأصوب لهم أن يسموه عصر النار.

- أراك تأثرت تأثرًا سريعًا ولما تسمعي إلا القليل عن عسف الاستعمار.

ولـو أنـكِ اسـتمعت إلى نحيـب النسـوة وهـن حامـلات أطفالهـن في ساحة السـجن ليرمقـن أزواجهـن وأبناءهـن وأشـقاءهن النظـرة الأخـيرة مـن خـلال النوافـذ الصغـيرة المشـبكة بالخرصـان الكثيفـة وذلـك قبـل أن ينفـذ فيهـم حكـم الإعـدام شـنقا، نعـم لـو سـمعت نحيبهـن آنـذاك ورأيـت ذلـك المشـهد الرهيـب لأسـتحوذ عليـك الهلـع والحـزن.

- أوهل سـمعت قصة الشات الشـهيد الذي شنقه الاستعمار بالأمس؟

- كلا، إذ لم أقـرأ ذلك في الصحف.

- هـذا محظـور عـلى الصحـف نـشره. فشـهيد الأمـس شـاب قروي شـجاع وسـيم كان يحـب فتـاة قرويـة ظريفـة فياضـة بالجـمال الطبيعـي الحـي وقـد تمكـن مـن الـزواج بهـا بعـد اعـتراك عنيـف مـع التقاليـد والظـروف. ومـا كاد يمـضي عـلى زواجـه بهـا بضعـة أشـهر حتـى احتوتـه سـجون الاسـتعمار وقـررت إعدامـه شـنقا، غـير حافلـة بـشيء لـه مسـاس بالحـق أو العـدل! وقبـل أن ينفـذ فيـه حكـم الإعـدام بلحظـات جلبـت امرأتـه التـي وهبتـه قلبهـا الـبريء، وكانـت قـد ولـدت لـه طفـلا وصلـه خـبره وهـو في السـجن ينتظـر حتفـه. فأصابـه سرور ممـزوج بالمضاضـة آنـذاك، لم يعـرف كيـف يتخلـص مـن آلامـه! فجـاءت امرأتـه تحمـل طفلهـا بـين ذراعيهـا في ظلمـة الليـل الرهيـب وأدخلـت إلى زوجهـا في غرفـة موحشـة خيـم عليهـا الصمـت؛ لتودعـه الـوداع الاخـير! ونظـرت الى زوجهـا وهـي لا تـكاد تتيقـن أهـي في حقيقـة أم في خيـال، ونظـر إليهـا زوجهـا الكئيـب بعـين مليئـة بالعطـف والحـب واصطـدم بـصره بطفلـه: ثمـرة

حبـه، أملـه الجديـد المشرق الـذي أضـاء ظلـمات نفسـه. فانهـل الدمـع مـن عينيـه وكادت نفسـه أن تفيـض حسـرات. وهنـا لم تسـتطع امرأتـه المسـكينة أن تكبـح عواطفهـا فصاحـت صيحـة المظلـوم الأعـزل! ودوت الصيحـة في أروقـة السـجن كلـه واقشـعرت أبـدان المسـاجين وذعـروا، وهللـوا وكـبروا، عـلى أنهـم سرعـان مـا لجـأوا إلى الصمـت في خشـوع وورع كأنمـا كانـوا يناجـون اللـه بقلوبهـم الراسـخة الإيمـان التـي طهرهـا السـجن وصقلهـا فصـارت تشـعر مـع الجماعـة، تتـألم لآلامهـا وتفـرح لفرحهـا، بعـد أن كانـت قاسـية بعـض الـشيء لا تخلـو مـن الخشـونة. وانهمـرت دمـوع تلـك الزوجـة البائسـة وألقـت بنفسـها وطفلهـا بـين ذراعـي زوجهـا فعانقهـا عناقـا خالـدًا، وأخـذ يهـدئ مـن روع زوجتـه التـي كادت تفقـد تـوازن أعصابهـا مـن هـول الصدمـة المداهمـة، وبـكى الطفـل الجائـر الـذي لم يفهـم مـن ذلـك الموقـف المؤثـر شـيئًا كأنمـا دُفِعَ إلى ذلـك بإلهـام سـماوي، وصمـد الـزوج المؤمـن متمسـكا برجولتـه، قابضًـا عـلى زمـام نفسـه، يكبـت زفراتـه في صـبر ويطـوي صـدره عـلى لوعـة ومضـض، ويقبـل زوجتـه قبـلات حـارة طهـورة باعثـة إلى نفسـها الصـبر، محـركا فيهـا روح التضحيـة المغروسـة في قلـب المـرأة العربيـة، ثـم مـا يكـون منـه إلا أن يأخـذ طفلـه بـين يديـه ويطبـع عـلى جبينـه وخديـه قبـلات الأبـوة البـارة، وعينـاه تقطـران وقلبـه يتنـزى،. ثـم ينظـر إليـه نظـرة البطـل الـذي لم ينـل منـه جـبروت الظلـم ويخاطبـه في لهجـة قويـة قائـلا: «عـش عزيـزًا أو مـت وأنـت كريـم» ويحـار الطفـل المسـكين الـذي لا يـكاد يعـي شـيئا وتصطـدم أجفانـه بعضهـا مـن شـدة الحـيرة، ثـم يعـاوده البـكاء. فيلقيـه أبـوه الى أمـه التـي لم تسـتطع أن تتمالـك

نفسـها، فانطرحـت عـلى الأرض خائـرة القـوى، كليمـة الفـؤاد.

وينقـضي الوقـت المعـين فتنفصـل الزوجـة وابنهـا عـن زوجهـا قـسرا ويظـل زوجهـا رابـط الجـأش يحبهـا ويقـول لهـا: «إنمـا نمـوت لتحيـا أوطاننـا» ثـم يـودع رفاقـه مـن المسـاجين وينظـر إلى المشـنقة مبتسـما ويقـول: «مرحبـا أيهـا المـوت».

***

وهنـا علـت الحمـرة وجـه أمـل، وبـدا عليهـا التأثـير العميـق فقالـت والدمـع يـكاد يطفـر مـن عينيهـا:

- باللـه عليـك أن تكـف عـن هـذا الحديـث المـؤلم، فظلـم الاسـتعمار لا يطـاق سـماعه.

- وإذن فكيف تطاق مكابدة عسـفه؟!

- في الثـورة كل الأمـل ولـو أن فيهـا سـفك الدمـاء/ ولـو أن في سـفك الدمـاء جريمـة.

- السـفاك المعتدي مجرم أما السـفاك المدافع فلا!

- ليـس هـذا فقـط، بـل إن الاسـتعمار هـو سـبب هـذه الانفجـارات الدمويـة. فهـو الـذي يريـد سـفك دمائنـا فهـل نقـف أمامـه مكتـوفي الأيـدي؟! يجـب أن نثـور عليـه ونحطمـه لـكي نخلـص الإنسـانية المعذبـة مـن شره ونصـون دماءهـا الغزيـرة التـي تهـرق هـدرًا عـلى مذابحـه؛

إرضـاءً لـه وإشـباعًا لمطامعـه! الاسـتعمار مجـرم كبـير يجنـي عـلى الإنسـانية، فعـلى الإنسـانية أن تنتقـم منـه وتـرد كيـده إلى نحـره.

- هـذا صحيـح عـلى أن الثـورة النفسـية والفكريـة هـي القـوة التـي تقتـل الاسـتعمار وتهيـئ مـن الشـعب جيشـا لمناضلتـه، ولعلـه لا يذهـب عنـك أنـه واجـب الأدبـاء قبـل غيرهـم إلهـاب النفـوس، وإثـارة الأفـكار، وإيقـاظ الحـس الوطنـي في الجماهـير لتسـير في ثوراتهـا عـن عقيـدة وإيمـان.

- تريـد أن تقـول إن عـلى الأدبـاء إنتـاج الأدب الجماهـيري، أو بعبـارة أخـرى، الأدب الاشـتراكي.

- نعـم وإني لأرغـب لهـذا الأدب أن ينهـض لنـا بـشيء مـن واجبـات العلـم: العلـم المفقـود في الـشرق.

- وهـل تبغـض أحـلام الـشرق اللذيـذة وخيالاتـه الناعمـة وإيمانـه الجميـل؟

- كلا، لا يمكـن أن أكرههـا، ففيهـا عـلى كل حـال نـوع مـن التعزيـة، وإنمـا أكـره الـشرق مسـتغرقا في هـذه الأحـلام والأخيلـة، مؤمنـا بهـا، مستسـلما لتيارهـا ينتظـر سـعادته في عليـين! أحـب الـشرق عمليًّـا إلى جانـب خيالـه الفسـيح، أحـب لـه أن يسـتعين بخيالـه لا أن يسـتعبده الخيـال. وإني لأحـب للـشرق فـوق ذلـك، ألَّا يظـل منعـزلا عـن الأنـوار الاجتماعيـة التـي تلتمـع في أفـق الغـرب المعـترك، ففـي الغـرب جماعـات

مظلومة مثل جماعاته.

- ولكن ماذا تعني بالواجبات العلمية التي يجب على الأدب ان ينهض بها؟

- أعني البحوث العلمية التي تفيد المجتمع في حياته والتي لا يوجد عندنا علماء جريئون يخوضونها. خذي مثلا، موضوع العلاقات الجنسية. فكم منا يولدون ضعافا مريضين. وكم منا يموتون في عنفوان الشباب، وكم منا يلاقون التعاسة في حياتهم الزوجية، وكم منا يسقطون في هوى الممالك، ولو رجعنا إلى ذلك كله وبحثنا عن السبب لوجدنا أنه الجهل في المسائل الجنسية. أكثرنا لا يفهم شيئا عن الحياة الجنسية، لا يفهم أكثرنا كيف يجب أن تكون علاقاته الجنسية مع امرأته. وأكثر النساء عندنا لا يفهمن ذلك، وأكثرنا لا يفهم أسرار الشرور والأمراض التي تهاجمنا لجهلنا فقط. كم من زوج في حرب مع زوجته لأنهما لم يستطيعا أن يفهما بعضها فهما جنسيا، وأنا أدرك أن لو قام كاتب يسلط شعاع الحقيقة على هذه المسائل لضج حماة الرجعية من حوله وشفقوا على الأخلاق! ولكن يجب على مثل هذا الكاتب أن يضع نصب عينيه مصلحة الجماهير ثم لا يعبأ بشيء. يجب أن تفهم الأم كيف يجب أن تربي طفلها، يجب ألا تخدعه حين يسألها من أين أتى، بل يجب أن تمادى معه في الحديث وتشرح له كل ما يجهله عن طبيعته الجنسية. بذلك فقط يخرج جيل جديد من ابناء الحقيقة.

- لعـلي بعـد عـودتي مـن المهجـر أجـد هـذا اللـون مـن الأدب النابـض بالحيـاة، يعـم مجلاتنـا وصحفنـا، ولعـلي أجـدك كـما عهدتـك: وفيًّـا، مخلصـا في حبـك، أمينـا عـلى عهـدك.

«١٠»

عن ظهر الباخرة أسبيريا

عزيزي!

أكتب إليك الآن من الباخرة وهي تمخر بنا عباب البحر، ولست أنكرك أن صورتك ما تلبث ملازمة مخيلتي منذ أن ابتعدت بنا السفينة عن الشاطئ الذي أصبح يبدو جميلا، رائعًا غاية الروعة. ولقد بدأت أشعر بشوق لاذع نحوك ونحو بلادي العزيزة المجاهدة، التي تعاني القسوة والآلام. ولقد أحسست باللوعة تتلذع بين ضلوعي وأنا أتأمل صفاء السماء، وفتنة البحر المائج وروعة الصخور التي تتلألأ ببريق الماء. ولعل هذا المنظر البهيج الذي كنت أرمقه وأستمتع بجماله إذ يلوح من خلال نوافذ السفينة، قد هيأ لعواطفي فرصة ثمينة للاتصال بعواطف إخواني المظلومين في كافة الأصقاع. ولعل هذا التمازج العاطفي هو الذي أشعرني بتلك اللوعة النفسية العميقة المتلاحقة التي ما كدت أتخلص منها إلا وكأني أستيقظ من حلم موصول، ثقيل ...

لقد انتهكت أمام عيني الآن أستار كثيفة كانت تقنِّع الحقيقة منذ حين. ذلك أني كنت أحسب أن صاحبة القلب الذي ينبض بالحب تنسى الناس، وتنسى المجتمع ولا تعود تفكر في غير من تحب، إذ تكون في مثل موقفي. غير أني الآن أدركت سرًّا جديدًا من أسرار الحب. فالحب يرهف القلب ويصقل العواطف ويجعل من الإنسان كتلة رقيقة من الإحساس تتأثر حتى إذا مر عليها النسيم الخفيف. فكيف بعاصفة

عنيفـة مـن القهـر والاسـتبداد والرجعيـة؟!

والآن، مـا يليـق بي أن أجـزع لفراقـك مـا دمـت واثقـة مـن إخلاصـك ووفائـك، ولعـل الإنسـان لا يتـذوق حـلاوة الوصـال، إلا متـى طعـم مـرارة البعـاد! واقبـل أصـدق تحيـات

حبيبتك المخلصة

أمل

١٩٣٨/٠٩/١٤

«١١»

«مدينة المهد»

عزيزتي

وصلني كتابك اللطيف وأنا أشد ما أكون شوقًا إلى حديث منك أو نبأ عنك. فأقبلت على قراءته ملهوفًا ملذوذًا، ولا تدهشي إذا أخبرتك أني أعدت قراءته ثلاث مرات متتالية. فقد حوى من خصوبة العاطفة وعمق الإحساس ما جعله كالزهرة الفواحة كلما شمها المرء عبق أريجها في قرارة رأسه فأحس بما يشبه النشوة، ولكنها نشوة بركانية تدفق في أعصابه الثورة على ما في التقاليد من حماقة وسخف وعلى ما في نظم المجتمع من ظلم وفساد!

وثقي يا عزيزي كل الوثوق من أن بي مثل ما بك من عاطفة مألومة وشعور ثائر وشوق كثير. وينبغي أن تثقي أيضا بأن قلبي سوف يبقى كما عرفته: صارمًا كالسيف، يقطع كل ما يمس من تقاليد رجعية مضرة، ومبادئ استعمارية متوحشة، وآراء سقيمة عفنة، وسوف لا يأبه للتماثيل والأصنام البشرية، التي فرضت عبادتها على الجماهير المظلومة المغموطة الحق. ثم سوف لا يتأثر بالحملات المأجورة التي قد يثيرها عليه حماة الرجعية من أبقار وبهائم ترتع في الأديرة وتمنع الجماهير من التقدم، وتحجب عنها النور الصحيح.

وبعد فأرجو أن تكوني سعيدة منشرحة الصدر، وأن تتمتعي بحياتك الجديدة التي يصل بينها وبين حياتي هذه، خيط من الشعاع الروحي، يلمع بأسمى الأشواق، ويتألق بأصفى الأحلام والعواطف!

المحب المخلص

«...»

١٩٣٨/٠٩/٢٢

«١٢»

عزيزي!

هبطت ربوع المكسيك هذا الأسبوع مع والدتي وشقيقتي الصغيرة ولشد ما كانت غبطتي حين وجدت رسالتك قد سبقتني إلى مقري الجديد، وأخذت تنتظرني ريثما أصل فأذوق ما تتضمنه من عواطف سامية ونظرات صادقة. وقبل أن أحدثك عن سروري لما شاهدت في هذه الديار، فمن رغبتي أن أطلعك على ما أصابني من ألم وحزن لما قرأته في بعض صحف هذه البلاد عن فظائع الاستعمار في وطني العزيز. فلقد غاظني جدا أن تنسف السلطة قرية بأسرها فتشتت أهلها الفقراء وتدعهم من دون مأوى يلجؤون إليه، فيتناثرون في زوايا الشوارع عراة، جياعا، يدخل منظرهم الأسى إلى القلوب. فهناك نسوة مشعثات الشعور ممزقات الثياب مغبرات الوجوه يرضعن أطفالهن الذين يستدرون العطف والألم لبكائهم المتقطع. وهناك صبية وشيوخ يتأملون هذه المأساة التي تمثل بهم، في شيء كثير من الحيرة والخوف. وكأنما هؤلاء وأولئك أكداس من الحجارة والأخشاب، لا قيمة لها!! وأشهد لولا الأمل الذي أعلقه على جهاد إخواني الأبطال في هذه الثورة التحريرية الشريفة، لتبددت نفسي حسرة وحنقًا. فحياهم الله وأبلغهم ما يصبون إليه من أهداف نبيلة؛ ليزيلوا آلام هذا الشعب الذي أثقل كاهله بشتى صنوف الحرف والتعذيب.

وإذا كنت كما قال الشاعر الالماني لسنغ، لا أكتب إلا كما أفكر وأحس

تماما، فينبغي أن أصف لك في اختصار حقيقة مشاهداتي سواء منها ما يرضي وما لا يرضي. ولعلي أسفت جدا للتقهقر الأخلاقي الذي تعانيه بلاد المكسيك اليوم. إذ أصبحت الأنوثة فيها مبتذلة والعفة رخيصة. فالمرأة في قيمة الدابة أو دونها، غير أن هذه جناية النظام السابق الذي أفقر الشعب المكسيكي وأغنى أفرادا قلائل أمعنوا في الترف واتخذوا من بنات الشعب ونسائه ألهوة يشبعون بها شهواتهم المنحطة. أما النظام الجديد الذي يسري الآن بعد الثورة الأخيرة والذي يطبق شيئا فشيئا فقد أنعش جماهير العمال ونشط الحركة الشعبية وأزال كابوس الضغط عن الفقراء والمساكين. وقد عصفت الحكومة الجديدة بالشركات الاستعمارية الأجنبية التي كانت تستغل دم البلاد، البترول الموفور في تربة المكسيك، وجعلت ذلك ملكا للشعب بجماعاته العاملة، تتصرف فيه لخير الشعب ومنفعته!

ثم إن الحرية المتاحة للجماهير هنا لا تقدر قيمتها بالنسبة إلى بلادنا حيث يمنع الفرد من إبداء رأيه وبث عقيدته، وإني أرجو أن ينال شعبنا العربي حرية من مستعبده كما نالها من قبله الشعب المكسيكي. والعرب أسخى من المكسيكيين، في البذل والتضحية والبسالة.

وأهل المكسيك كسائر أهل أمريكا وأوروبا قد حرروا أرواحهم من قيود الكنيسة، فلا يضير أن يتزوج المسلم من المسيحية ما دام الزواج قائما على أساس الحب. والدين شيء يتعلق بالله وبالأمور السماوية، بينما الزواج يتعلق بالإنسان والجماعة الإنسانية؛ ولذلك فلا ينبغي أن يفسد المجتمع من أجل اختلاف المذاهب الدينية، بل يجب أن

يتماسك المجتمع ويتصل بعضه ببعض بشعور أخوي خالص من الحب والإخلاص والتضحية وإنما الدين الصحيح هو اتصال ضمير الإنسان بخالقه من غير وساطة.

أراني خرجت عن موضوع رسالتي فاعذرني واقبل سلامي الحار وقبلاتي عن بعد

المشتاقة المخلصة

«أمل»

١٩٣٨/١٠/٠١

«١٣»

عزيزتي!

رسالتك الجميلة ملقاة أمامي الآن! وكأني أستأنس بها إذ أتمثلك فيها تبتسمين تلك الابتسامة ذات المعاني! وإني لأزمع أن أخط إليك بعض السطور وإذا القلم يكاد يتململ بين أصابعي كأن رأسه مثقل بالنعاس من شدة السهاد المتواصل! ولا تعجبي ففي هذه الليالي تسهر الأقلام وتنفض النوم عن أجفانها! إذ كيف يستطيع القلم المرهف أن يجد سبيلا إلى النوم وسط هذا الصخب المفزع؟!

يا لروعة الموقف! ظلم يكاد لهوله ينطق الصخور غضبا، يقابله صبر نبيل، هو صبر الشعب المؤمن الذي كره من الحياة عبوديتها وظلامها!

تعذيب وحشي يقض لشناعته مضاجع الأطفال، تسخر منه بطولة عجيبة، هي بطولة الجماهير المناضلة في سبيل حريتها واستقلالها!

إرهاق عنيف مدجج بالنار، تدوسه أقدام الضحايا الشريفة، التي تخترق هذه الظلال الزائلة، وتستقر في عالم الخلود.

مدافع جهنمية ترش الناس بوابل من رصاص «السلام!» الذي تنشده الدول الاستعمارية الكبرى، تسمو فوقها دماء نقية تشكو إلى بارئها فظاعة جماعة «الرفق بالحيوان»!!

ثم قنابل مدمرة من صنع جماعة «تحرير الشعوب واحترام حقوق

الضعفاء» يصمد أمامها ويقحم نيرانها ثوار أبرار أخلصوا للوطن وصدقوا فيما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى حتفه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.

لم ينم قلمي أيها «الأمل» فعسير جدا عليه أن ينام والقوم قلق يقظان! وإذن فلا تستغربي قولي لك إن القلم يكاد يتململ بين أصابعي بل صدقي فوق ذلك أنه يجري الآن مرغمًا بعض الإرغام.

لا أحب أن أردد لك كلمات الشوق والحب وغير ذلك. ولعلي لو أردت لفعلت في غاية من السهولة. ومن حسن حظنا أن لغتنا ذات ثروة لفظية تمهد أمام الكاتب طرق التعبير المختلفة، على أن كلينا يعلم ويحس بالشوق والحب المتبادل بيننا فالكلام في ذلك مما خف مستثقل على السمع! خصوصا في هذه الظروف العصيبة التي تتطلب منا أن ننسى ذاتيانا وننصرف إلى الجهاد بقلوب صافية تستوعب شعور الجماعة المظلوم قبل أن تتصل بشعور الفرد الحبيب.

وهذا يعني أن هذه الرسائل التي نتبادلها ليست كالرسائل التي اعتاد أن يكتبها العشاق والمحبون من الأدباء والكتاب إلى من يعشقون ويحبون، بل هي طريقة جميلة لتصوير هذه الحياة الواسعة التي نشترك فيها بالشعور ونقاسي آلامها وقسوتها! ولا يعني هذا أننا نصورها كما هي فقط، بل يعني أيضا أننا ننتقد أوجه النقص فيها بأسلوب هو لنا!!

وأخـيرا إليـك تحيـة بيضـاء، كالثلـج، صافيـة كطقـس الربيـع، خاليـة مـن التمويـه والخبـث والإجـرام الـذي يبطنـه جماعـة «الرفـق بالحيـوان»، و»صـون حقـوق الشـعوب الضعيفـة»، كومبـاني ليمتـد.

«المخلص»

«...»

«١٤»

عزيزي!!

لطلاوة الحديث جمال، على أنه جمال يظل ناقصا حتى يقوم الدليل في النفس على أنه صادق ومخلص أيضا! فقد يكون الحديث طلًا جميلا بعض الجمال ولا يكون ذا قيمة لأنه مزيف كاذب غير مستمد من صميم الواقع في نزاهة وإخلاص. وإذا كنت ألتذ برسائلك فلأني أجد فيها عدا الطلاوة، صدقًا وإخلاصا وتحمسا للحق.

ولكم أجدني في غمرات من الإحساس الوجداني العميق حين أقرأ نفسك في رسائلك إلي، ولست أشعر بهذا الفيض من الاحساس في كثير مما أقرأ، ولعل الشاعر الالماني «لسنغ» قد فسر هذا السرَّ وأوضحه حين قال: «إن عواطف بعض الأدباء كالأحطاب إذا احترقت تخرج دخانًا كثيفًا وعواطف بعضهم كالبخور إذا احترقت يفيض عطرها».

وقبل أن أنسى أحب أن أذكرك بوعدك القديم! هل تذكر يوم قلت لي إنك ستفسر كيف يكون الاستعمار من مقتضيات النظام الاجتماعي الحاضر، وكيف يمكن إشادة نظام اجتماعي آخر يزول فيه الاستعمار؟

«المخلصة»

«أمل»

«١٥»

عزيزتي!

تسألينني أن أبر بوعدي وأشرح لك كيف يكون الاستعمار من مقتضيات النظام الاجتماعي السائد وكيف يمكن إيجاد نظام اجتماعي آخر، يزول فيه الاستعمار. ولست أشك لحظة في أن دافعك إلى هذا السؤال هو ما تسمعينه كل يوم عن فظائع الاستعمار وصنوفي وحشيته، وبطشه بالأمم العزلاء، وتنكيله بالشعوب الضعيفة، ولست أشك أيضا في أن الألم الممض الذي يتغلغل في قرارة نفسك لهول النكبات والمصائب التي تنزل في أبناء وطنك المظلومين، نعم لست أشك في أن هذا الالم لا يقل عما يساورك من قلق وحزن لما تشهدينه من تلك المجازر البشرية، بل تلك الجنايات الهمجية التي يرتكبها وحوش الرأسمالية الفاشستية في إسبانيا والصين حيث تسيل الدماء المطلولة صارخة تفور ثورة وإباء.

ولعل الجناية الاستعمارية الأخيرة التي تآمرت فيها النازية الهتلرية والفاشستية الإيطالية والرأسمالية المجرمة في لندن وباريس، على تمزيق تشيكوسلوفاكيا واغتصاب أراضيها، نعم لعل هذه الجناية الإجرامية المريعة قد حزت في أعصابك وألهبت عواطفك سخطا ونقمة على هذه العصبة الرأسمالية البربرية التي تتآمر على الشعوب فتمزق أوطانها وتنحر حريتها وتهتضم حقوق الإنسانية في غاية من السهولة واليسر.

هـذه العصبـة الرأسـمالية الجشـعة التـي نشـطت معامـل الأسـلحة والطائـرات اسـتعدادا للإجهـاز عـلى الجماهـير الإنسـانية الوادعـة وإراقـة دمائهـا.

هـذه العصبـة الرأسـمالية السـافلة التـي تسـتر مآربهـا السـيئة ونواياهـا الخبيثـة تحـت العبـارات المنمقـة والألفـاظ المعسـولة: «إقـرار السـلام في العـالم»؟!، و«حمايـة الأمـم الضعيفـة» ؟!، و «المحافظـة عـلى اسـتقلال الـدول الصغـيرة»؟! ولـو كانـت صريحـة بعـض الصراحـة لقالـت بجملـة مختـصرة واضحـة: ذبـح الإنسـانية بـكل لطـف فـإذا أبـت أن تذبـح وحاولـت بذلـك «تعكـير السـلام»!؟ فحينئـذ يجـب ذبحهـا بعنـف لإقـرار السـلام؟!!

أجـل هـذه العصبـة الرأسـمالية الفتاكـة ذات المخالـب و الأنيـاب وذات البطـن الضخـم الهائـل الـذي يتسـع لافـتراس الجماعـة البشريـة بأسرهـا، بـل هـذه العصبـة الفاجـرة المنافقـة التـي تآمـرت بالأمـس لاقتسـام البـلاد وتمزيق الأمـم في المجـزرة البشريـة التـي تعـرف بالحـرب الكـبرى، حـين قـام لصـوص هـذه العصبـة الخائنـة بتمثيـل أدوارهـم تمثيـلا بارعًـا يكمـن في داخلـه الإجـرام فقـال ممثلهـا الفرنـسي وسـط المجـزرة: «ولقـد كانـت فرنسـا نصـيرة العـالم وهـذا مـن دواعـي افتخارهـا وسـيظل شرفـا لهـا، فهبـت إلى الوغـى والسـيف في يدهـا تحـارب لأجـل المدنيـة واسـتقلال الشـعوب» ثـم تبعـه الممثـل البريطـاني الـذي لا يقـل عـن زميلـه لباقـة وخبثـا فقـال: «وسـنحارب حتـى نشـيد سـلطة الحـق عـلى القـوة، ونضمـن للـدول جميعهـا، الصغـيرة والكبـيرة، حريـة الازدهـار في ظـل أسـس المسـاواة التامـة (التـي وجدناهـا اليـوم في فلسـطين بـين العـرب واليهـود؟!)!!.

هـذه العصبـة الرأسـمالية المخاتلـة التـي (عـلى فمهـا مـا ليـس يبطنـه الصـدر) هــي الكابـوس الثقيـل الـذي يجثـم اليـوم عـلى صـدر الإنسـانية، ضاغطـة عليهـا أشـد الضغـط حتـى ليـكاد يخنـق أنفاسـها! بـل هـي الطاعـون المرعـب الـذي يحـاول اجتيـاح العـالم واكتسـاح الشـعوب! فمتـى قـضي عليهـا فحينئـذ تسـتطيع الجماهـير الإنسـانية أن تتنفـس في حريـة وطمأنينـة ونشـاط وحينئـذ فقـط، تتمكـن هـذه الجماهـير مـن بنـاء حياتهـا الجديـدة عـلى أسـاس صالـح مـن الحـب والإخـاء والمسـاواة.

قـد تجديـن في هـذا الـكلام بعـض الغمـوض، فاسـمعي إذن: يعيـش في بـلاد الإنجليـز اليـوم ثمـان وأربعـون مليـون نسـمة عـلى وجـه التقريـب، مليونـان منهـم فقـط، يملكـون الـثروات العظمـة ويتحكمـون في الرسـاميل الضخمـة التـي بواسـطتها يسـيطرون عـلى وسـائل الصناعـة والإنتـاج ويسـخرون الجماهـير العاملـة ويسـتعبدونها. وثلاثـة ملايـين آخـرون لهـم مدخـول يـدس إلى خزائنهـم بعـض الـثروة. أمـا أغلبيـة السـكان السـاحقة، أمـا الثلاثـة والاربعـون مليونـا الباقـون، فإنهـم يكـدون ويفنـون جسـومهم ويذبـون أنفسـهم، كالشـموع المحترقـة، في المعامـل والمناجـم مـن أجـل الخبـز: ذلـك الخبـز المعجـون بدمـاء قلوبهـم وآلام نفوسـهم.

أمـا الطبقـة الرأسـمالية المسـتبدة الطاغيـة فتتخـذ مـن آلام الجماهـير فراشـا وثـيرًا ناعـمًا تتمـرغ عليـه لـكي تحـصي الأربـاح الفاحشـة التـي قنصتهـا مـن دم تلـك الجماهـير. ولعلـه لا يهمهـا كثـيرا أن تفكـر في حـال تلـك الجماهـير العاملـة، فحسـبها أن تقـضي أوقاتهـا سـابحة في اللذائـذ، منغمسـة في الشـهوات، هائمـة في الأحـلام الحلـوة، قريـرة العـين، مثلوجـة الصـدر!؟

إن حياة هذه الجماهير المسكينة لتستدر العطف، إنها سلسلة من المآسي والأحزان، إنها مرتع خصب للآلام! إنها صورة صادقة للشقاء والبؤس!!

وتصوري حالة العامل الفقير مهما يكن حكمها، هادئ الأعصاب، حين لا يجد في حيازته قيمة زهيدة تزيد عن ثمن الخبز لا لتمكنه من التمتع باستجلاء جمال الطبيعة على شاطئ البحر، ولا لتمكنه من التنعم ببعض الملاذ إلى حين قصير، بل لتمكنه من ابتياع كتاب نفيس ينكب على قراءته فيغذي عواطفه ويروي ظمأ روحه! ولعله لو آثر الجوع أو العراء ليستطيع شراء ذلك الكتاب، فأكبر الظن أنه لن يجد لديه متسعًا من الوقت للمطالعة!!

وهكذا تقاسي هذه الجماهير جوع العواطف وظمأ النفس، فوق ما تقاسي من جوع مادي وألم وإرهاق وتنغيص!!

ولكنك سوف تسألينني: «وإذا كان هذا الجمهور المكون من ثلاثة وأربعين مليون نسمة أي من الأغلبية الساحقة، فقيرًا سيء الحال، فمن أين تأتي تلك الأرباح الفاحشة التي تتحدث عنها، إلى جيوب هؤلاء الرأسماليين الذين يؤلفون الأقلية؟!»

والإجابة عن هذا السؤال بسيطة في غاية من السهولة. فهؤلاء الرأسماليون القلال الذين لا يزيدون على المليونين، يهيمنون على جمع وسائل الإنتاج أو «الرساميل المنتجة»: أي الفبارك العظيمة التي تصنع الآلات بكثرة ثم الآلات الغزيرة الانتاج التي ارتقت اليوم بفضل هذه

الثـورة الصناعيـة، وأصبحـت تنتـج في اليـوم الواحـد مـا يكفـي الجزائـر البريطانيـة عامًـا كامـلا، وإذن، فأيـن تذهـب هـذه الطبقـة الرأسـمالية بهـذا المنتـوج الضخـم؟! لا شـك في أنهـا تحتـاج إلى أسـواق خارجيـة تبيـع فيهـا بضائعهـا، ولكـن طبقـات رأسـمالية أخـرى في غيرهـا مـن البـلاد تنافسـها في تلـك الأسـواق الخارجيـة. وإذن، فيجـب أن تحتكـر لهـا أسـواقًا خاصـة تنفـق فيهـا جميـع منتوجاتهـا. أي بعبـارة أخـرى يجـب أن تسـتعمر! يجـب أن تخضـع بـلاد أخـرى غيرهـا وتجبرهـا عـلى اسـتهلاك منتوجاتهـا الضخمـة؛ لتضمـن لنظامهـا الرأسـمالي، البقـاء والاسـتمرار.

ومـن هنـا يـا عزيـزتي جـاءت فكـرة الاسـتعمار الـذي نـذوق اليـوم عذابـه وظلمـه. ومـن هنـا أيضـا كان الاسـتعمار مـن مقتضيـات النظـام الاجتماعـي الوحـشي الـذي يسـود المجتمـع اليـوم.

وهـذا المثـل الـذي ضربتـه لـك عـن بـلاد الإنجليـز تسـتطيعين أن تطبقيـه عـلى فرنسـا وألمانيـا وإيطاليـا وأمريـكا واليابـان وغيرهـا!

عـلى أنـك مفرطـة الـذكاء متسـعة آفـاق التفكـير؛ ولذلـك فقـد تسـألينني: «وإذا اصطدمـت مصالـح هـذه الرأسـماليات المختلفـة أفـلا ينصـدع نظامهـا؟»

فأجيبـك عـن هـذا السـؤال قائـلا: متـى اصطدمـت مصالـح الرأسـماليات الاسـتمرارية المختلفـة اصطدامًـا لم تحـل دونـه وسـائل الإرضـاء التـي كثـيرا مـا تكـون جريمـة إنسـانية، كالقضـاء عـلى اسـتقلال شـعب أو تمزيـق بـلاد، فحينئـذ لا معـدى لهـما عـن الحـرب ومتـى اندلعـت السـنة الحـرب فهـي

إنما تلتهم جماهير المال المسكينة التي تظن أنها إنما تدافع عن أوطانها مع أنها في الحقيقة تهرق دماءها هدرا لمصلحة الرأسمالية المجرمة!!

أعلم أني حتى الآن لم أبر بوعدي كاملا، فقد بينت لك كيف أن الاستعمار من مقتضيات النظام الاجتماعي السائد. غير أني لم أبرهن لك كيف يمكن إيجاد نظام اجتماعي آخر يزول فيه الاستعمار.

في النظام الاشتراكي فقط، يزول الاستعمار؛ لأن البلاد التي تطبق فيها المبادئ الاشتراكية تطبيقًا صحيحًا تحيا حياة رافهة سعيدة تغمرها الطمأنينة، من غير أن تحتاج إلى الاعتداء على حريات الخير وغصبهم أوطانهم.

ولقد تسألينني: ولكن النظام الاشتراكي يحرم الملكية الفردية ومن هنا يبدأ كرهي له، وهنا أقول إن النظام الاشتراكي وحده هو الذي يحقق الملكية الفردية للجميع، إذ في النظام الاشتراكي تكون الرساميل المنتجة، ملكا للامة. ثم إن الانتاج نفسه لا يزيد عن طاقة الشعب على الاستهلاك ولذلك فقد انعدمت الحاجة إلى احتكار الأسواق في الخارج. أما أرباح المنتوجات فتوزع على جميع أفراد الشعب العاملين، كل في الحقل الذي يعمل فيه وعلى حسب استحقاقه ونوع عمله، فالأديب الذي يحرق نفسه ليضيء للشعب، يكافأ بأكثر مما يكافأ العامل في مصنع الطائرات - مثلا - وليس المقصود من هذه المكافآت قيمتها المادية فقط بل قيمتها الروحية أيضا. فهذه المكافآت للأدباء

مثلا تفسح أمامهم المجال للإبداع وتغذي في نفوسهم غرسة النبوغ والعبقرية التي تعود – في النظام الاشتراكي فقط - بالخير والسعادة على الإنسانية، وأقول في النظام الاشتراكي فقط لأن العقول التي تعيش في ظل النظام الرأسمالي الرجعي تشترى وتستغل للتدمير والإجرام.

ولأتابع حديثي عن الملكية الفردية في النظام الاشتراكي، ففي الحقيقة أن الملكية الفردية تكاد تكون معدومة في غير النظام الاشتراكي. فالعمال الفقراء الذين تسخرهم الرأسمالية قلما يملك أحدهم غرفة حقيرة يأوي إليها هو وأولاده؛ ذلك لأن الأرباح الجزيلة التي كانت نتيجة لكده وجهوده، فإنما تتدسس في خزينة أسياده الرأسماليين ولا ينال منها شيئا، أما في النظام الاشتراكي حيث توزع الارباح على قدر العمل ونوعه، فيحصل جميع أفراد الشعب العاملين، في أي حقل كان عملهم، على مكافآت تمكنهم من اقتناء سيارات، زيادة عن منازل السكنى، ومواد العيش!

أما الملكية الفردية التي تحرمها الاشتراكية وتحول دون خطرها فهي ملكة الرساميل المنتجة. وهذه نقطة أحب أن تنتبهي إليها كل الانتباه. فهناك فرق كبير بين الملكية التي لا تدر الربح كالبيت أو السيارة، والملكية التي تنتج وتدر الربح كالفبارك والآلات الصناعية، فملكية الأخيرة محرمة على الفرد لأنها ملك للجموع إذ لو كانت هذه الرساميل المنتجة، من فبارك وآلات إلخ، ملكا لبضعة أفراد، لاستبد هؤلاء الأفراد بالمجموع وأدخلوا الأرباح إلى جيوبهم وحرموا منها جماهير المال وهنا تنعكس الآية ونعود إلى النظام الرأسمالي الذي هربنا منه.

فلا يغررنك بعد الآن، دعاة الرأسمالية الرجعيين الذين يدخلون إلى روع الجماهير الجاهلة أن الاشتراكية تحرمهم من الملكية الفردية مع أن الحقيقة أن الرأسمالية هي التي تحرمهم من الملكية الفردية.

وإني لأخشى أن تسألي قائلة: وإذا كان ينقص بعض البلاد شيء من المواد الخام التي تحتاج إليها في العمل فالجواب على ذلك يسير بعد أن نعلم أن ما ينقص في هذه البلاد من المواد الخام يزيد في تلك وما ينقص في تلك يزيد في هذه. ثم بعد أن نعلم أنه متى طبق النظام الاشتراكي في جميع الأمم فحينها تضمحل الضغينة وتتلاشي البغضاء وتزول المنافسة الاقتصادية من بين الأمم ويحل محلها التعاون والحب والإخاء. فتستبدل الدولة ما ينقصها من المواد الخام بما يزيد عندها من مواد أخرى تلزم غيرها وهكذا يسير المجموع البشري نحو النور والسعادة في ظل الفضيلة التي لا وجود لها اليوم في الغرب المستعمر.

أحسبني بررت بوعدي الآن، غير أني أود لو أذكرك في أنه عندما زأرت جماهير موسكو وهبت ريح الثورة الروسية العصوف، وذلك عام ١٩١٧، فقد أعلنت الحكومة المؤقتة حال تأليفها بعد تحطيم الاستبداد القيصري، أنها لا تنوي اقتسام أية أرض أو ضمها إليها على حسب المعاهدات والاتفاقات التي تمت في عهد الاستعمار القيصري. ولعلك تذكرين ذلك البيان الجميل الصادق الذي أذاعته هذه الحكومة

الجديـدة وسـط نـيران الحـرب المندلعـة وذلـك في ٥ أيـار عـام ١٩١٧ إذ قالـت فيـه:

إن الحكومـة الروسـية المؤقتـة تعلـن بالاتفـاق مـع الشـعب كلـه، إنهـا ترفـض في سياسـتها الخارجيـة أيـة فكـرة ترمـي إلى السـيطرة عـلى شـعب مـا مـن الشـعوب، أو سـلبه سـيادته الوطنيـة، أو الاسـتيلاء بالقـوة عـلى أيـة أرض أجنبيـة، وإنمـا تريـد سـلامًا بـدون ضـم، أو تعويـض يرتكـز عـلى حـق الشـعوب في حكـم نفسـها بنفسـها.

وتمعنـي في هـذه الـروح التـي تنبـع مـن المبـادئ الاشـتراكية السـمحة وقارنيهـا إن اسـتطعت بوحشـية الحكومـة القيصريـة السـابقة التـي كانـت تتآمـر مـع الرأسـماليات الأخـرى، لتمزيـق شـمل الأمـم الضعيفـة، والتـي خدعهـا الحلفـاء وكنـا مـع الأسـف الشـديد، أول المخدوعـين وأعثرهـم حظـا.

آمـل الا يجـد الوهـن إلى عزيمتـك ثغـرة يدخـل منهـا. وآمـل، أيضـا، ألا يتطـرق شيء مـن اليـأس إلى نفسـك لمـا تشـاهدين مـن غطرسـة الرأسـماليات الاسـتعمارية اليـوم وعنفهـا، فـإن الجماهـير التـي تؤلـف تسـعين في المائـة مـن مجمـوع سـكان العـالم بـأسره، أقـوى مـن الطبقـة الصغـيرة التـي تتألـف منهـا الحـشرة في المئـة الباقيـة. وإذا كانـت هـذه الأكثريـة السـاحقة المظلومـة التـي تـئن تحـت كابـوس الضغـط الرأسـمالي اليـوم، تحتـاج إلى نضـال شـديد كي تتمكـن مـن سـحق خنازيـر الرأسـمالية البربريـين ثـم تعيـش في سـلام وأمـان، فـإن هـذا النضـال قـد بـدأ اليـوم فهـذه آثـاره، بـل هـذه معاركـه الباهـرة في فلسـطين! فلسـطين المضحيـة المجاهـدة التـي وقفـت اليـوم تـدرأ

عنهـا خطـر الرأسـمالية الأنجلـو – صهيونيـة، عـن وطنيـة وإيمـان!

وهـا هـي بـوارق الأمـل تلمـع في الأفـق، هـا هـو الفجـر يحـاول أن ينشـق عـن إشراق الانتصـار فـلا تيـأسي ولا تضعفـي. لا بـد مـن أن نقـضي عـلى هـؤلاء الوحـوش الذيـن سـلبونا سـعادتنا وحقوقنـا وثقـي بـأن المسـتقبل لنـا!

المشتاق: «...»

«١٦»

عزيزي!

أعتذر إليك من الزعج الذي سببته لك حين أرغمتك على الشرح الطويل الذي جئت به في رسالتك السابقة.

إن النفس المصدوعة التي يعيش فيها الأمل من العسير جدا أن ترضى عما يشوه هذه الحياة الذليلة من رجعية واستعمار.

المشتاقة: «أمل»

١٩٣٨/١٠/٢٠

«١٧»

عزيزتي!

في رسالتك ألم مكبوح لم أستطع أن أستكنهه على وجه التحقيق. غير أن نارا لاظية هبت في صدري وأخذت تحتثني على الاستفسار، لعله الحب المعذب، يخفق بين ضلوعك، أو لعله الشوق أورثك بعض الضعف، لست أدري! على أني آمل أن نلتقي رغم هذه الأيام السوداء الثقيلة التي تبدو قاسية أشد القسوة ولكنها في الحقيقة رياضة للجماهير المظلومة.

٣٠-١١-١٩٣٨

المشتاق

«...»

«١٨»

عزيزي!

تتساءل عن الألم المكبوح في رسالتي الاخيرة إليك. وهو ألم أنت تعرف مصدره، نعم أنت تعرف أن مصدر الألم الذي يختلج في قلب المجتمع إنما يعود أولا إلى الرجعية السوداء، التي حولت الدين إلى نوع من الأفيون المخدر لتلين به قلوب المساكين لقبول الذل والعبودية؛ لقبول الاستعمار الوحشي الذي يزحف كالأفعى فاغرًا فاه لابتلاع البشرية.

غير أني أبشرك بعزومي على العودة قريبا: العودة إلى الوطن المجاهد العزيز، ذلك لأن إشعاعات النصر وبوارق المنى قد أخذت تتوهج من بعيد! ها هي ذي شرارات الاستقلال تتطاير من جبل النار، فوق جباه المجاهدين الغر ...

إلى الملتقى قريبا مع الفوز القريب ...

١١-١٢-١٩٣٨

المشتاقة

«أمل»

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة

مشروع النشر الرقمي